KHIDR

ILQI MA FI YADIK

Princeton University Library
32101 074072461

2271
50924
K4
.349

2271.50924.K4.349
Khidr
Ilqi ma fi yadik

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

القرار في يدك

وفق
ضد

ألق ما فى يدك

الطبعة الاولى

١٩٧٠

مطبعة الغري الحديثة ـ النجف ـ ت ٢٦٨٢

Khidr, Muwaffaq

موفق خضر

Ilqi mā fī yadik

ألق ما في يدك

قصص

2271
.50924
K4
.349

للكاتب :

المدينة تحتضن الرجال	« رواية ١٩٦٠ »
الانتظار والمطر	« قصص ١٩٦٢ »
مرح في فردوس صغير	« قصص ١٩٦٨ »

ألق ما فى يدك

١

— « ألق ما في يدك ايهـــا الشيخ . . إلق ما في يدك واستسلم . . » .

خاطبته في سري . وجهت الكلمات الخافتة اليه وانا اراوح بين الشفقة و التشفي شاعراً انهما إحساسان لعينان ينتابانني الآن كما ينتابان روح شيطان . . كنت اوجـه الكلمات وانا اغرق اغرق في امتداد الصمت البارد ، يندلح في المكان ويدور يدور مثل موجات من الهمس المضبب في الحلم . . احدق فيه هذا الرجل المتهدم ، حيث ظل مرمياً باحتقار في الزاوية التي وجدناه فيهـا متكوماً على كرسيه عارضاً جسده المتغضن للهواء المخنوق الذي جمد من حوله فى الغرفة المأفونة الرائحة التي تنز بالموت ، وكان الهواء يتـداخل بطنين الصمت بينما امتـلأ

برائحة النتانة . لبثت انقل عيني في أرجاء الغرفة تملؤني بنفس الوقت حيرة تكاد ان تنتهي الى اليقين والثبات و الراحة المعذبة ، فلقد انتهت القصة ، وألقى الرجل عصاه اخيراً وانفلق البحر وغاض الماء و عبر الرجل البرزخ واحتواه اليقين الموجع . . همهمات افراد الشرطة والرجال المحتشدين الذين أحدقوا به من كل جانب تشي بخوفهم وحذرهم وتقززهم . . انا اعرفه جيداً . . اسمعوا ايها الرجال . . انه لا يخيف ، ولكنه يعبر البرزخ الى حيث تنتهي الاشياء ، وحيث ترونه الآن مقابل الجثة ، مخلوقاً لن تصادفوه بعد اليوم . . الرجل الشيخ المتهدم ، لا تتحرك عضلة فيه ، كانت فقط ثمة ابتسامة صغيرة هازئة تسوح فوق وجهه المصفر ، وحركة صدره تعلو وتهبط في ايقاع خفيف رتيب . . تقدم الرجال ولمسوه في حذر ، وحينما تأكدوا انه حي ، وانه لن يؤذي واحداً منهم تكوموا عليه وسحبوه عن كرسيه . عجبوا كيف طاوعهم في ذل . . ارتجف بادىء ذي بدء . . ارتعشت قدماه ، ولكنه مشى بينهم صامداً كروح ثابتة تقاوم التيار . حدق بي وتمتم من بين شفتيه . . ومرة أخرى سمعت هسيس الكلمات البائسة في رأسي تحوم بعناد . . اعلنت النهاية وكأنني أمسح على حياة الرجل بيد حناة بالشفقة والتشفي — « كفى ايها الرجل . .

إلق ما في يدك . . إلق ما في يدك واستسلم . . »

خرجوا به . . بقيت وحدي . . غير اني خرجت خرجت من مستطيل الغرفة وتنفست هواء العالم وحدي . . وكدت ان أبكي . .

٢

غض من نظرك ايها الرجل الغريب . . إنزل عينيك عن ان تتسلقا حيطان البيوت التي تتعانق متجاورة متلاصقة في الشارع المقابل للمقهى التي بدأت تتردد عليها باصرار وعناد ، تمسح بعينيك الدبقتين ارض الشارع وتفرعاته ومعالمه ودوره والناس الذين يدخلون فيه ويخرجون منه ، كأنك تبحث بهما عن ضالة قطعت خلفها مئآت الاميال . . كنت حذراً في البدء ثم تجسدت في عينيك الضيقتين ، تلك العلامة المفرقة الدالة عليك .. تطفح بالدبق والزوجة والوقاحة وتستثير في الآخرين اول ماتستثير العداء والخصومة . . بدأت ارقبك كما ارقب نزول حدث بالغ الخطورة يقتحم علي الفكر ويملأ الطريق امامي بالعثرات .. في البدء لم اعر بالاً لوجودك في المقهى التي لا يتردد عليها الا الأصدقاء وسكان الشارع المقابل ومدمنو المساءات الخاوية ، وهم

فيما بينهم يعرف كلاً منهم الآخر . . اما ان تأتي انت في ذلك اليوم ثم تعاود المجيء متأكداً من انك ستحتل نفس المكان وبالصورة العنيدة التي تنطبع فوق وجهك كبصمات ثابتة ، فقد كان ذلك ما يشغلني ساعات طويلة . . كنت دبقاً الى حد السفالة ، مرتخياً بجسدك فوق تخت المقهى كما لو انك تعرف وجوهنا جيداً وتفهم مايدور في خلدنا جميعاً ، وكنت حينذاك تبدو في وجودك معنا في المقهى كالعبء ينفرش عريضاً على مشارف الشارع وفروعه وازقته ، وكنت بذلك تكشط معالم شخصيتك بازميل من الصخر وتتحدد بيننا علامة لا تخطئها العين . . ومنذئذ كان بدء تأريخك معنا في الشارع . وقد خمنت اول الأمر انك تريد ان تفتح فيه اخدوداً يشبه الجرح او انك تريد ان تعثر على المنفذ الذي يوصلك الى الشارع واهله حتى تقلب أمنه وسلامه اللذيذين الى عالم من الضجيج والأثم يتخلله نعيبك .

ظلت عيناك تسوحان في الشارع المقابل للمقهى ، وكنت انا قريباً منك ارقب فيك النظرة اللزجة التي تتسلق امتداد البيوت واسطحها المعراة للريح والشمس والامطار ، واستقرئ فيك جنون الغرابة التي تخفي ما تخفي تحت مظهرك وحركاتك.. كان بيننا الصمت . وفي الصمت وحده امتد خيط بيننا شد

قطبي التنافر ، اذ كنت على الدوام اقف مستوفزاً ازاءك لأرد عليك . . في لحظة خالدة من الزمان الذي عشته انا التقت عينانا تحت تأثير قوة لا تقهر ، كنت ترمقني في ثبات يتجاوز كل اعتبار ، ووجهك يتوجه نحوي متطافحاً بابتسامتك الهازئة وذقنك المدبب يرتفع قليلاً عن صدرك وتنطبع في عينيك تلك العلامة المثيرة للاحساس . هبطت بعينيك تقتحم بهما وجودي في المقهى وانا اتكوم ثمة مثل كل المساءات المنصرمة باللاجدوى والفراغ والتردد في اقتحام التخوم البعيدة ، كنت قريباً منك ، احتل تختاً من تخوت المقهى مثبتاً عيني بالمقابل ما استطعت ، غير اني في نهاية المشهد ابتسمت . لا ادري لماذا . . هل كنت انت تثير اشمئزازي وسخريتي أم كنت تحدد لي حدود عالمك في لحظة الالتقاء المظللة بالتساؤلات . ؟ لا ادري.. غير اني خطوت اليك والقيت بظلي فوقك حتى غطى جسدك المرتخي فوق التخت ، وبقيت واقفاً ابحث عن صيغة سؤال ملائم ألقيه على رجل غريب مثير للعجب مثلك . . استثارني صمتك وبرودك واقتحمتني كما لو انك تفتح في صدري كل الحدود وتطلقه للزوبعة ، وكدت ان اصرخ فيك وان اشعرك بوجودي الذي يفترض ان يثير لديك احساساً قوياً بالمواجهة والتحدي ، غير انك كنت موصولاً بحالة تشبه ان تكون ارتخاء تحت تأثير

مخدر خارق تصحو انت فيه ثابتاً كالصخر متجاهلاً كل الاشياء..
اهتز جسدك اهتزازاً خفيفاً لأول مرة وسمعتك تتمتم ببضعة كلمات ، ثم جاءني صوتك نابعاً من انهار العالم الضاجة باصوات الشلالات الهادرة - ولقد راقبتني طويلاً . . أليس كذلك .. »

وكدت ان اجيبك بوقاحة مبادراً الى اغلاق فمك ، وان احسم الامر بيني وبينك بان آمرك بترك المكان وعدم التشوف طويلاً الى الشارع الذي اعتبره ويعتبره الآخرون عالمنا الخاص مسيجاً لا تطئه اقدام غريب ولا يعبره الوافدون من مكان آخر . . الا انك قلت لي من بين عينيك اللزجتين - « اجلس.. يسرني ان تجلس معي . . اما شبعت من أن تراقبني كل يوم ؟ »

سألتك عندئذ مطامناً من جموحي وحدتي - « ولكن من تكون ايها السيد ؟ »

قلت لي بعناد - « ولكن لماذا لا تجلس هنا . . اجلس وسأقول لك »

- « هل تبحث عن احد هنا . . »

- « انا ابحث عن كل شيء . . ولا ابحث عن شيء . »

- « لماذا لا تحدد معنى وجودك في المقهى ومراقبتك للشارع . ؟ »

- « ربما ابحث عن شيء ما . . ولكن لماذا لا تجلس

الآن . . انا ادعوك الى ان تمارس معي وقتاً طيباً غير الوقت الذي تمضيه . . »

عجبت له . . قلت مستوفزاً - « غريب ان تقول لي ذلك الآن . .

لماذا تلجأ الى المداورة . . »

رفع عينيه اليّ . . ألصقني به ، وكدت ان اقفز بعيداً عنه ، كان غريباً حينما يوجه النظرة بذلك الاسلوب الذي يتراوح بين البراءة والشبق .

- « لن اداور معك . . غير اني ادعوك الى ممارسة لعبة لم تمارسها من قبل . . »

وبهت لحظة ئذ . . كنت تهدم الاسوار والحدود دون مراوغة ، وتمد خطوتك نحو الآخرين دون ان تلتفت الى ماتثير من زوابع ، ورغم انك كنت غريباً عن المكان كله ، الا انك مضيت معي بجرأتك ووقاحتك وبعينيك العجيبتين تقلص المسافة التي تمتد بيني وبينك وفيها ما فيها من تساؤلات محيرة .

- « ولكن اية لعبة ايها السيد . . انك تهذي »

- « لن اهذي معك . . خذها من الآن . . لن يكون بيننا الهذيان ، بل الحقيقة التي تنبع من الممارسة . . »

- « عن أي شيء تقول . ؟ »

- « من الممتع ان تجلس معي الآن . وتبدأ اللعبة »

كنت ما أزال واقفاً ازاءك ، ملقياً ظلي فوق جسدك المرتخى كمادة هلامية ، اعلو فوقك واتمعن فيك . جذبت نظري خطوط الشيب في رأسك والتغضنات الكثيرة التي حفرت آثارها في وجهك تعلن عن هموم خفية . . جلست بجنبك . .

- « افصح عما تريد وعمن تبحث ايها السيد »

« دعنا من ذلك الآن . . لنبدأ اللعبة كي تكون هي مراسيم علاقتنا »

- « أية لعبة ؟ »

- « ان نمارس الصمت وسط هدير العالم المهرج المتعب .»

- « اهي طريقة في الحياة تسلكها انت »

- « اوه . . واستفدتُ منها الكثير الكثير . . دعنا نصمت ونؤدي طقوس الصمت وسنعثر على الصفاء . »

وهكذا بدأنا اللعبة . . لعبتك يا ناجي حنون . . يا موظف وزارة المالية العتيق المتقاعد . . يا من قضيت عمرك كله تسعى كالمأفون الغائب عن كل شيء الا عن نفسه وافكاره . . تعرف اين يكون الصفاء للانسان وان تعثر على مواقع البهجة تطرحها على نفسك شالاً تلف به همومك ووحدتك . وترتادها مقتحماً اسوار المجابهات التي تضعها لك المقادير والآخرون . . بدأنا

اللعبة بالصمت والاستغراق فيه الى حد الدروشة ، وعجبت لنفسي كيف انسقت معك هذا الانسياق وكيف اني آثرت الصمت مستغرقاً معك في بهجة التأمل الباطني للموجودات رغم كل الضجيج الذي كان يأتي الينا من الشارع الرئيس والمقهى والناس والسوق القريبة وفاضت بي روعة التأمل وشعرت تدريجياً ان ما بيني وبينك من غرابة اللقاء تذوب حتى تستحيل تآلفاً لا نظير له من الفهم . . فهمتك فهمتك يا ناجي حنون جوّاب آفاق ومقتحم مغامرات ، بيدك أدوات صيدك . تبحث عن يقين لم تنله رغم حياتك الطويلة حيث يخالط الشيب شعر رأسك . . ومن اعماق صمتنا في المقهى التي شهدت لقاءنا الاول انبعث صوتك خفيضاً اول الامر ، يهدهد السلام المفقود وينيم اللحظات الملتهبة من العمر على النغم الذي راح يعلو محملاً بصوتك وانت تغني مقاماً عراقياً دون آلة لكل الناس الذين حولك . . التفت اليك ، وجدت معالم وجهك تسافر عاشقة في ليلة بليلة من ليالي صيف عزيز ، تسافر مع نغم عراقي حزين ، وجدتك لحظتها تبدو سعيداً بكل ذلك ، سعيداً رغم كل الآلام التي يبدو انك كابدتها في الماضي بصبر وشجاعة وبدأت عيناك تلتمعان بمزيج من ذلك البريق العجيب المحمل بالشبق وبالبراءة .

واخيراً قلت لك - « ايها السيد . . من تكون . »

قلت لي سعيداً وانت تقطع جسد النغمة الحزينة ويعاودك ذلك الامتداد المكثف في وجودك ـ « لقد اصبحنا اصدقاء وهذا يكفي . .

ربما ستعرف عني الكثير . . دعنا الآن من ذلك مادمنا أصبحنا اصدقاء . »

طامنت من تساؤلي وهو يدور جامحاً في صدري وعقلي ، طامنت منه وانا اتطلع اليك في شك فظيع يا ناجي حنون ، ولن اخفي عنك ، فلقد نبتت فكرة التحدي معك حتى النهاية ، ورغم اني كنت اكفكف من هواجسي الملعونة ازاءك فلقد كان الرعب والارتجاف يمران على احاسيسي مروراً بارداً مثيراً للخوف ، ولم اكن اعلم انك تدخر لي كل ذلك . . .

٣

في مساء اليوم التالي على لقائي به ، مضيت ابحث واياه عن بيت يسكنه في نفس الشارع الفرعي المقابل للمقهى ، والذي ينتهي طرف منه الى نهر دجلة ، بينما يبدأ الطرف الآخر بتفرع من شارع صلاح الدين حيث تقع المقهى التي عثرت فيها عليه.. كانت الاشجار العالية الخضراء العتيقة المعمرة والقائمة وراء

سور السفارة البريطانية تنوس لنسائم المساء الطفلة كما ينوس رأس مغنية صغيرة تؤدي الغناء على المسرح . . فكرت به طويلاً وانا امضي معه للبحث عن مسكن صغير يأوي اليه ، فكرت به وعجبت كيف ينقاد اليه تفكيري هذا الانقياد السهل ، وخمنت انه يزاول التسكع كمهنة اصيلة وانه ربما يمتهن البوهيمية كمذهب وانه ربما سيأتي بفعل من الافعال ذات يوم وسأكون انا الوجه الآخر له . كنت افهم حق الفهم ان للشارع ودروبه وازقته الفرعية واهله البسطاء عادة تجذّرت في نفوسهم كنبات صحراوي معمر - تدور حولها التحفزات العنودة المتوارثة ازاء اي غريب يطرق ارضية زقاقهم ودروبهم الضيقة ، ذلك ان احجار الازقة تعرف اهلها حق المعرفة ، تعرف خطواتهم وتميزها في الليل والنهار ، وحتى الجدران التي تخفي وراءها ما تخفي والتي تقوم متلاصقة كصفٍ من المرضى المصابين بالسل ، حتى الجدران تعرف من هو القريب ومن هو الغريب كان لها عيوناً تبرق في الليل والنهار ترصد الآتي والذاهب وتنبض في تعب متواصل مخفية وراءها في حرص اسرار الناس المتعبين .

رغم ذلك ، مضينا نبحث ونسأل . . وكان ناجي حنون يقف معي بقامته ووجهه المريع ملتزماً صمته حيث اتولى انا السؤال عن دار صغيرة خالية ، وتظل عينا ناجي حنون تجوسان

ارجاء الزوايا ومشارف الطرقات كمن ينتهي الى يقين ثابت في انه سيهبط هنا هبوط الطير في وكره لامحالة . . لاشيء اثاره ازاء دهشة السكان واستغرابهم وتشوفهم وعيونهم الملأى بالفضول والمتطلعة اليه بتحفظ . .

- « دعنا الآن . . سنجد بيتاً في الغد . »

- « ولكن امامنا وقتاً كافياً للبحث . . هل تعبت ؟ »

- « لم اتعب . . ولكن يخيل الي ان هناك بيتاً صغيراً ينتظرني غداً ولن نصل اليه في بحثنا الآن ونحن ندور في الطرقات كالحمير »

وعجبت كيف اجاز لنفسه ان يقيم التشبيه بهذا الحياد واللامبالاة وكدت افارقه لولا انه بادر بصوته الثابت - « علينا ان نكون اقوياء وصبورين . . لا تغضب . . »

وقهقه برعونة ونزق واستهتار واستتبع - « لا تغضب ، علينا ان نتصبر كالحمير . . هاه . ؟ »

وظل يقهقه وقد بانت اسنانه الصفراء المنخورة . . احسست بدبقه يتسلق وجودي ، وكدت ان ابصق في وجهه وادعه وحده ، ولكنه مضى متيقناً من انني سأسكت عليه راضياً كل الرضى .. كانت له شخصية مغطاة بطبقة من تراب الزمن ولكنها تنبع فجأة مطلعة رأسها كالشيطان فتنفث امامها ما تنفث وتستفيق

كعملاق أشرث ثم تعود مختفية تحت اكوام من اتربة الزمن وهمومه .
كان ناجي حنون يبدو على الدوام متحدياً قوى لا تواجه غيره من الناس العاديين ، وكنت اجد فيه منذ لحظة اللقاء الأول شيئاً ذا رائحة مثيرة لكوامن النفس ، حيث يتردى الفعل في التردد والخوف والانكماش ، كان يثير فيّ شيئاً افتقده ولا اعيه ، قوة لا أدركها ، جموحاً يبحر في اجواء العواصف ولا يتردد . .

٤

في اليوم التالي وجدت له بيتاً صغيراً يقبع كالذل في آخر درب ضيق ينتهي آخره الى الشط ، الى دجلة حيث يمضي النهر متدفقاً كالارل الخالد نحو مصبات عشقه الأخير .

- « هل ستعيش فيه وحدك ؟ »

- « اجل . ، سأعيش وحدي . . هل تتصور أن لي اقارب أو أهل ؟ »

- « كنت افترض انك لست وحدك . . »

- « ذلك افتراض يفرضه الآخرون . . دعنا من هذا كله . . انا اعيش بمفردي »

- « ولكني يا ناجي حنون اخشى ألا يسكت الجيران على

تفردك . . فللزقاق عاداته وتحفظاته . . »

ـ « اعرفها حق المعرفة . . وليست بي حاجة الى احد ، كما انني لن يهمني كثيراً تقولات الناس »

ـ « يا ناجي حنون . . اما ينتسب اليك ولد أو بنت أو أمرأة . . قل لي اذن . ؟ »

ـ « ربما . . ربما ينتسب الي كل الناس . . وربما انا لا انتسب اصلاً الى واحد منهم . . ولكنني لست بحاجة الى احد »

تركته في البيت بعد ان نقل اليه أكواماً صغيرة رثة من العفش ، كان ينقلها بمساعدة حمال يدفع عربة خشبية . . تجمع بعض الاطفال ساعة نقل العفش . . زعق فيهم ناجي حنون فتشتتوا كالنمل . . بينما كان هو يصب شتائمه كالسيل .

انصرفت عنه وقبعت في المقهى وفكرت انه ربما سيأتي . . وتساءلت لماذا يثير وجوده معي هذا التركيز الشديد حول ما يدور في حياتي من بؤس وانهيار وتمزق ، ومن احساس بقيمة معينة بدأت تراودني من طرف خفي . . قبعت في المقهى وتقوقعت على نفسي ككل الأيام الا ما يختلف به هذا المساء الذي يتلون بثقل الظل الذي ألقاه هذا الرجل الغريب . . آثرت الصمت مع نفسي وافكاري ، أتمسك بالصمت وحده ، انكمش فيه كالمقتنع بأي شيء حتى ولو كان تافهاً وصغيراً . .

انها لغتي الحمقاء التي اجيدها واتمرد ضدها مع نفسي فقط ، لغة الاجترار للفعل المتردي في قاع الجبن والتردد . . أثور واسخر من ثورتي ، واعود الى شيء من الرضى والأمن والاستقرار ، ثم لا اعتم ان أثور دون غاية محددة ، غير هذا الصراع الذي يتأبد في حياتي دون انقطاع . . ليس لي من يدلني على اي شيء يمكن للأرواح التي تتلبس افكاري ان تستقر وتهدأ ، وليس لي من يقول لماذا أؤثر هذا الصمت والانقياد الى كل الاشياء التي تمر بي دون ان ابالي بماذا تكون نتائجه بالنسبة لي . . « ابتسام » هذه المرأة التي تتحرك بفعل الشهوة والدعوة للأعتناق ، هي الأخرى تأخذ جانباً من هذا الخط الذي ينتظم حياتي . . « ابتسام » زميلتي الموظفة في الدائرة التي اعمل فيها كاتباً ، أشتهيها واحبها في آن واحد ، كنت افكر فيها على انها رأس الشيطان الذي يثير عندي هذا النزوع الى التمرد وانطفائي عنه في نفس الوقت . . فكرت ان اقول لها انني احبك وانني اشتهيك في آن واحد وأنت تخطرين بين غرف الدائرة واروقتها تحملين بيدك اوراقاً وملفات واضابير الى المدير او الى بعض الموظفين الكبار وتتحدثين مع الجميع كما لو انك تريدين اسماعي بكل ما تشتهين وتثيرين . . وفي مرات عديدة كنت انتقم لنفسي منك فافح في سري فحيح الثعبان ـ

« احبك واشتهيك . . ولا بد أن انالك يوماً »

ومن عجب انني فى هذا المساء بدأت اربط بين صورتي ناجي حنون والمرأة الموظفة « ابتسام » ويسرني هذا الربط اذ أجد فيه منفذاً للتشبيه بينهما على انهما يمثلان حقيقة واحدة . . وفي النهاية ، وعندما لم استطع ان ابلغ من ذلك وطراً يخلصني من كآبات المساء آثرت الصمت وانا اقاتل في عالمي المظلم قتال الجبناء . . ها انني ادور في الحلقة المفرغة . . لقد كبت الكثير الكثير من اشيائي التي اخلقها بيدي وافكاري . . كان ذلك قبل ان التقي بناجي حنون . . وقبله عرفت اية لعنة تنصب عليّ متمثلة في « ابتسام » ، ومن كثرة ما عانيت كبت في صدري كل الأحاسيس ، ومرات عديدة بكيت وبكيت متدهوراً كالضعف الذي ينزل صاعقاً في جسد مريض منهك يأكله المرض تدريجياً ويمسك به في قوة لا تغلب . . ويلوح لي في آخر المساء وجه ناجي حنون فاصرخ كالمشدوه في سري « اي شيء اذن وجدته فيك يا ناجي حنون واية حياة تعدني بها بعد لقاءنا بالأمس وانا اجدني ملتصقاً بك ومنقاداً اليك كالأعمى . . . »

٥

ظل يتردد على المقهى حيث نجتمع مساءاً صحبة اصدقاءٍ

يروق لهم صخب المذياع وضجيج الدومينة والطاولي والثرثرات الكسولة التي تمتد لتشغل فراغ الأيام الرتيبة المسئمة . . لا شيء في المقهى سوى المنظر الكابي الذي يرين على جوها الكئيب وجدرانها المغطاة بطبقة من آثار الأهمال والسخام . . كنا نرتادها يومياً دون حساب لتغيير النمط الذي يتكرر دوماً ، ولم اكن - طيلة معرفتي بالمقهى - أحاول الخروج من الشرنقة التي ظلت تضغط على روحي المكتئبة والمستسلمة ، وتعصرني بمساءات تهبط بساعاتها وتمضي دون انتظار لأي تبدل . . ألفت كل شيء واعتبرته جزءً من الحياة التي لا أجد فيها معنى رائعاً يبدل من قيمتها المحددة في نظري . . ساعات الدوام في الدائرة منكباً على الاوراق كما تنكب الخيول المنهكة على معالفها صافنة ساكنة . . واقدام « ابتسام » تقرقع من غرفة الى غرفة في الدائرة ، يأسرني فيها وجهها الذي يتكشف عن نزوته ودعوته دون انقطاع . . واحلام بائسة تتراود كالخيال الواهن بيني وبينها ، وفي الصمت الذي يلف علاقتنا ببرقع مهلهل من الخواطر المريعة التي اكتنزها في ذهني كمجنون يتعامل مع الخارج بالتداعي غير المنتظم للأشياء ، ولا يفعل غير ان يصمت . . وفي المساء تتقضى الساعات في المقهى الكابية بجدرانها وروادها واستكانات الشاي التي ابجها باحتقار وتقزز . .

بـدأ نـاجي حنون يتردد على المقهى ، وفي اكثر من مرة حاولت تجاهلـه لكنه كان يثير ذلك التركز العميق في تفكيري بـه . . وكدت ان اطلب اليه ذات مرة ان يمتنع عن المجيء فحضوره امامي وإلتزامه مقعداً بجانبي يشدني بوثاق غليظ يظل يزيـدني رعباً يجتاح نفسي المنغلقة على أبوابهـا ويحرك افكاري المأفونـة بالف محرك مغلف بلعنة دبقة مثل عينيه . . ولكنـه كان يمضي قدماً غير آبهٍ . . وفى مرات عديدة كان قد بـدأ يتعامل مع رواد المقهى والاصدقاء الآخرين على اساس معرفته الحميمة بهـم ، وكأنـه يعرف مهمته منذ البدء ، ناسفاً كل التحفظات ، مندلعاً مـع الصحب في صوتـه الذي بـدأ يتآلف مع أصواتهم المتشابكة الضاجة .

وفي ذات مساء ، بعد مرور زمن على وجوده معنا في المحلة والشارع والمقهى . . ذات مساء وكانت الاشجار العتيقة المعمرة المصفوفة وراء جدار السفارة البريطانية تنوس في حركـة عنيفة محـدثـةً ازيزاً حاداً تضخمه الريح المسائية الباردة ، في ذلك المساء ألقى ناجي حنون كلماته وهو يحاورني في المقهى وكأنه يعرف سلفـاً انني سأوافق حالاً دون ان اشغل تفكيري بمشقـة المناقشة ـ « لمـاذا لا نخرج من هنـا . . اما تختنق انت من سحب الدخان وجعجعة الأصوات . »

قلت له - « اين تريد ان نذهب . .دعنا هنا ياناجي حنون . »

- « اسمع . . لا تكن عنوداً . . انني اعدك بان تقضي معي وقتاً غير الذي تقضيه في هذه المقبرة . . هيه . . هيا . . »

قمت معه . . تجولنا في الشوارع متسكعين . قطعنا مئآت الامتار وانتهينا الى حانة صغيرة . دعاني اليها ، وكان لحظة ئذ يبدو مرحباً وكأنه يقبل على تمضية وقت لا مثيل له في البهجة.. شربت معه العرق الأبيض . استطاع ناجي حنون ان يتحمل أكثر من نصف القنينة بسهولة والتهم المزة بنهم وشراهة ، وبدأت تختفي عن عينيه علامات اللزوجة القاتلة ويتحول انساناً آخر مغلفاً بنكهة الحياة المنسرحة دون قيد . . قهقه طويلا ، وابتهج من اعماقه وغنى مقامات عراقية صاعداً فيها كما ترفرف طيور الغاق رويداً رويداً حتى تحلق في الكبرياء السامقة . . ولأول مرة بدأت اشعر بسعادة حقيقية ذات مذاق جديد ، إذ عدت إلى نفسي وأنا اهتز مع اهتزازات صوته وقهقهته وبدأت الاشياء من حولي والتي تمتد إلى أغوار من العمر تتكشف عن صور شفيفة تختلط دوماً بضبابيات تتخاطف امام العين والفكر..

- « اسمع . . انت تشرب قليلاً . . هل تراني جيداً .. انك تجد امامك ناجي حنون الذي تقدم به العمر . . ولكن

لا تصدق كل ما يقال عن الالم . . عن الانسان الذي يبـــدو متعبا بسبب الركض . . حينما تشرب فانك تتحول عملاقاً رغم كل شيء . . تندثر كل آثار الزمن عن وجهك » صمت قليلاً ثم زعق بي بعد هنيهة في مرح مجنون ـ « اشرب أيها الشاب .. ولا تكن ملعوناً . . وجباناً . . »

كنت التزم الصمت واعاينه بملاحظـة مكثفة مدوخة وابتسم كالأبله ، ولكنه عاد يزعق بصوته المعبأ برائحة العرق ـ « هل أنت جبان . ؟ »

ـ « كلا . . لست جباناً يا ناجي حنون . »

ـ « انت جبـان . . هكذا اخمن . لم أجد فوق وجهك آثار اقتحام تتحدى بها الموت نفسه »

ـ « بعد أن استعرضت حياتي الماضية يا ناجي حنون . . لم أجد مغامرة تستحق الذكر . »

ـ « ولكنك تتجنبها متعمداً ايها الشاب . . هي امامك وبمواجهتك دائماً ولكنك تزيح وجهك عنها »

ـ « وماذا تريد أن اقول لـك يا ناجي حنون . . قلت لك ليست لدي مغامرات تستحق الذكر »

ـ« انت جبان رغم ذلك . كان عليك أن تقتنص بكارة الايام وتكشط الـزغب الذي يغلـف قشرة الروح . . اما

صدئت روحك . ؟ » تأوهت وتمتمت ـ اوه . . لشد ماصدئت الآن . . »

من خلال المرئيات المضببة بكثافة ، والتي كانت تتخلل جو الحانة الصغيرة الحقيرة بدأت ابصر وجهه مغلفاً بشرر آسر بليغ . . كان لا يدع لي وقتاً لألحق به وهو يلقي بكلماته التي تفوح بالعرق ، وعند ما أردت ان احدثه بشيء آخر ترددت منسحباً الى ذاتي شاعراً بدوخة لذيذة ، وسمعته يغني أغنية عراقية قديمة وكأنه لم يلق الى سمعي كلمة واحدة مما قاله لي .. ظل يتحرك قوياً في المحيط الذي زرعه حولي بينما كنت نقطة مرحة منعزلة في المركز . . كانت الأغنية ذات مقاطع جنسية وعراقية صميمة وكان يحرك رأسه حركات متساوقة ملقياً صوته الضخم وسط الدوي الذي تبعثه همهمات السكارى المنكبين على موائدهم القذرة الملأى بنفايات المزة . . ظلت رائحة العرق والمزة وجو الحانة المشبع بالدخان تثقلني كصخرة تتهاوى مشدودة الى القاع . كنت مخدراً الى حد الاحساس المكثف بالوجود الحقيقي ، مرتداً الى نفسي مرة اخرى ولكني في هذه المرة أتلمس عالمي الخاص شفيفاً وفياضاً بالأسى . .

زعقت فيه ـ « لماذا تقطع الحديث يا ناجي حنون . . انني لا افهمك . .

قلت لك انني لست جباناً . »

ضحك بخبث وكأنه يشير الى سكري ، ولكني حدقت فيه بوقاحة بينما كان هو يشير بيديه في خبط - » تستطيع ان تقاتل . . ولكنك لم تجرب كيف تقاتل حينما تأسرك الاحلام التي تراودك نحو شاطىء الحياة المغامرة التي تعج بالصعاليك .»

- « كيف يكون ذلك ايها الصعلوك . . »

- « سمني ما شئت . انا لا يهمني امرك . . بالنسبة لي ، تراودني الشطآن الأسرة دوماً ، أسعى اليها ملهوفاً وأدركها في النهاية متمرغاً فيها كما يتمرغ الوليد في أحضان أمه »

- « عليك اللعنة يا ناجي حنون . . »

- « صدقني أنا لست سكران الآن ، ولكني اسألك . . هل قاتلت يوماً . »

- « من أقاتل . ، أتريدني أخرج لقتال الخواء . . لم أجد الا الخواء يا ناجي حنون »

قهقه باستهتار - « ليكن تقاتل كل الحمير . كل القلاع المتجهمة المنيعة التي تخفي كنوز الارض . .افتحها وأقتحمها . . »

اطلقت ضحكي ازاء وجهه - « لن تكون في القلاع تلك الكنوز . . »

- « هل قاتلت في الشوارع اذن أيها الشاب . . »

صمت مع نفسي ألوك العتمة الجديدة وسخرت مع نفسي وقلت - « هه . . قاتلت في الشوارع تعلوني أتربة الفشل . . »

وتذكرت حالاً كيف كانت الأيام تلك . . اصوات الجماهير تهدر على أرض الشارع ويتعالى الهدير وتجحظ عيون الجميع متماوجة بين الغضب والمسرة وتبرز عروق الرجال في رقابهم كأنهر صغيرة زرقاء تمتلأ بالمياه . . وترتفع اللافتات البيضاء مصبوغة بشتى الألوان والحروف وهي تتلوى مع الريح معلنة عن صوتنا ثمة . . كنا نقاتل في الهواء . . ونطرح الكلمات خواءاً على أرض الشارع وجنباته ولا شيء بعد ذلك . . وكان الرجل القابع في القلعة يبتسم ابتسامته الصفراء الغامضة وتهتز أكتافه النحيلة مقهقهاً من الفرح والزهو لكل الهتافات التي تتعالى من أجله . . ونحن نوسع الجمع الهادر ونعلي من الصوت الصاخب وترتفع الرايات ويبقى الهواء يجابهنا بالفراغ واللاشيء . . هكذا قاتلنا يا ناجي حنون . . ثم ارتمينا في الصمت نمضغ المهزلة ونلوك قصة قتالنا في الهواء والفراغ وارتكنا بعد ذلك ركناً من مقاهي المدينة نجتر الذكريات . .

- « اسمع . . لم يكن قتالاً من أجل كسب القوت للجياع . . كان قتالاً وهمياً لتمجيد الذات . . »

- « وهل واجهت الموت بملامحه العذبة ذات يوم ؟ »

- « أنت تسكر يا ناجي حنون . . »

- « صدقني انني لو شربت أكثر من قنينة عرق لما تعتعت . . انني قوي ، هكذا كما تراني رغم انني تجاوزت الخمسين منذ ست سنوات . . هل رأيت الموت بعينيه الحلوتين؟»

- « أجل . . ذات مرة وفي ماض من الزمن عذبوني حتى الموت من اجل القضية التي كنت اؤمن بها . »

- « هل كان ذلك عذباً ؟ »

- « كانت قضية كبيرة تقف بديلة لموت الانسان ، ولكنني بعد ذلك لم أجد شيئاً في الواقع . »

- « آه انك تحدثني كما لو انك تتألم . . لا تتألم . . حتى في الموت يجب أن تكون قوياً ومجابهاً وسعيداً . . اسمع انني احلم دوماً بالعثور على حقيقة كبرى تكمن فيما بعد الموت . هل وجدت أنت ذلك ؟ »

- « كلا يا ناجي حنون . »

- « ليتني اجدها ولكن كيف . . ذلك يحيرني . . والسكر يزيدني أحياناً احتراقاً الى تلمسها كما اتلمس هذه الكأس . »

- « انك تهذي . »

- « أنا لا أهذي . . »

واعتلت ملامحه لأول مرة منذ أوينا إلى الحانة سحابة ألم

مكبوت ، وبينما كانت عيناه تنزان دبقاً كان يتأوه في داخله بالتأكيد .

واختصرنا الوقت ، وغادرنا المكان وقد تأخر الليل . . بقينا نتسكع في الشوارع الليلية الخاوية ، وكان هو يغني دائما بينما لزمتُ الصمت أفكر بحياتي الراهنة وعلاقتي معه منذ التقيت به ، ماذا يريد هذا الرجل وماذا يختزن في حياته . . وقبل أن نفترق في المكان الذي تقع فيه بيوتنا المتطامنة الصامتة في الليل اقترح علي ان آتي معه الى البيت واقضي معه ساعة لا غير . .

٦

حياتي شريط سينمائي بالٍ من كثرة العرض والاستعمال ، فعندما تعاودك الذكرى ، تستعيدها بالحاح وعذاب ولذة . . لا امنع نفسي من ان ترتاد مواطن الذكرى . . الوحدة يا صاحبي . . التفرد لوحدك يخلق منك رجلا متصوفاً تتصاعد فيك الروح سماوات وسماوات ، الا انا . . انا المتصوف الدنيوي الوقح . . حتى في تصوفي لم اعش الزهد . . ووحدتي واغترابي يبعثان في جسدي الشبق لكل ما في الحياة من بهجة

ورواء وشهوة ، وبين ذلك احلم بالموت على انه حقيقة صغيرة تخفي وراءها حقيقة اكبر . . هل تريد ان تفهمني . . ليكن هذا الليل المبلل بعرقنا بداية العلم . . لتكن هذه الليلة اذن . . هل تعرف ناجي حنون ، انه رجل حقير ونظيف في آن واحد . اعرف نفسي واعلل كل مساوئي على انني اعرفها حق المعرفة ، ولذلك فانني اغدو احياناً خفيفاً مثل جناح الطير ، لأنني اعرف انتمائي واعرف شهواتي التي تنز من منبع المجابهات اليومية مع كل مغريات الحياة ، اقدم عليها في اقتحام مجنون ، لا يردني شيء مهما بلغ من القوة والمنع . . وفي النهاية انتصر ، الا شيئاً واحداً لم استطع ان انتصر عليه . . ذلك هو الموت . . وفي الماضي اخذ الموت ابني الصغير . أردت أن احاوره في الايام الاخيرة من حياته الطفلة.. علمت ابني الصغير أن يتشجع وكنت امارس معه عملية تشبه عمل الكيميائي في مختبره ، وكان الصغير يبتسم وهو منطرح في فراشه الجحيمي بسبب ارتفاع الحمى . . كان يقول لي انه يرى اشياء كثيرة ولكنه لم يستطع ان يصفها لي . . ووعدني وهو يعبر الخطوات نحو الابدية انه سيكون مثلي وظل يبتسم ويرى الرؤى واستطاع الصبي الصغير أن يعيش شهراً يصارع الموت ، وكنت اثير فيه كل دوافع الحياة ليتمسك بها ويقابل كل شيء بشجاعة ولكنه في النهاية مات ، وقبل ان يموت بساعات بكيت

كالأطفال عند قدميه ، وكنت ابكي مصير كل الاطفال الذين يولدون من أجل الموت ، كان صبياً عظيماً لم يعش إلا تسع سنوات فقط ، تركني بعدها دون ان أحقق فيه معجزة النصر ازاء الموت . . بعد ذلك ، تركت زوجتي التي لم اكن أحب معاشرتها منذ البداية ، كنت اكرهها بشكل فظيع واعاشرها في الليل وكأنني انتقيأ شيئاً كريهاً ومقيتاً كانت قاسية وثرثارة وجافة القلب . لم احتملها بعد موت الصبي فتركتها دون طلاق، وسمعت بعد ذلك انها عاشرت رجالاً عديدين بسهولة ولم ابال بذلك بل كنت ابتهج إذ أراها تختنق في الطين . . وخيل إلي ان سنوات الصوم الحقيقي قد انتهت وبدأت حياة الصعلكة والتحدي الموجع إلى آخر الشوط . . هذا الشوط الذي لم أدرك نهايته لحد الآن . . وحينما تراني الآن تستطيع ان ترى على جسدي آثار زمن طويل وتجارب فذة وبصمات نساء برجوازيات كن يرتضين العلاقة معي بجنون اذ يجدن فيّ جنوناً وشهوة لا تحد . واكثر من امرأة متزوجة كانت تخون زوجها معي دون خوف ، وكانت غرف النوم المترفة تحوطني في النهار وفي الليل وعند ما يذهب الرجال البرجوازيون وهم آمنون من شرف البيوت المدهونة بالترف كنت اتسلل غير وجل ، وفي كثير من المرات حملت السلاح لمجابهة أي طارئ يقابلني في الأقبية الملونة الزاخرة باللهاث .

في نهاية تطوافي التقيت بالمرأة التي أحرقتني . إمتنعت عني في البداية . . كان اسمها « نوال » وكانت تزاول العهر مع كثير من الرجال قبل ان تلتقي بي ، كانت مومساً بمعنى الكلمة غير انها كانت تتعفف احياناً الى درجة لا تصدق ، كانت تفهم كيف يكون الحب ، ولذلك آثرتني في النهاية وامتنعت عن الآخرين . مصت كل عروقي كرجل ، وكانت امرأة رائعة كل الروعة ، وفي ليال مسهدة كانت تبكي عند قدمي فى مخدعها وتقول لي - « كيف يمكن ان نفترق . . كيف يمكن ان نتلاشى . . » وتشهـــق بالدموع واظل مستغرقاً في منظرها العجيب ، كانت تملك جسداً مرصعاً بطبقة من الحليب الدسم، وكان هذا الجسد ينمو بقوة لا ترد ، ويتألق باستمرار بين يدي وكنت أتساءل حينها كيف يمكن للموت نفسه أن يطويه وهو بهذا الحد من القوة والفتنة . . وذات يوم ذهبت « نوال » ولم تعد . . بحثت عنها كل الأمكنة كالمعتوه ، ولكنها كانت قد قررت الا تعود إلي . . عدت اطفو فوق الشوارع والطرقات وحيداً صعلوكاً كل الصعلكة ، لفظني الناس وعافني الجميع ، غير ان شبق الحياة والشواطئ الآسرة بالصخب ظلت تدق في جسدي أجراسا مزلزلة وكأنها موصولة بفعل القوى الكامنة في النفس الظمأى . . وكنت كثيراً ما اتوقف في منحدر الجري

اساؤل نفسي ترى أية نهاية ستجابهني من بعد وهل سأسقط شهيداً من اجل قضية ما أم هو التحرق المأفون هو الذي سيحرقني على الدوام من أجل اللاشيء . ؟ ورغم ذلك بقيت أعدو على الطريق وما يزال النداء يلهب في عقلي لهفة لا تنطفيء . . هناك شيء يدعوني بلهفة ولا بد ان احتضنه في يوم من هذه الايام . . »

كان ناجي حنون يتحدث في الليل . . وقد بقيت ساعات قليلة ويطر فجر اليوم التالي بعدها . كان صوته في الليل مليئاً بسحر التجربة والطواف ، محدداً برائحة التخوم التي تهوم في البعيد البعيد ، وكنت انا مرمياً في مركز الجذب مشدوداً اليه كما لو انني قيدت بحديد .

صحوت بعد ذلك على الصمت ، وكان ناجي حنون قد بدأ يرتخي من السكر والعرق وقد احمرت عيناه كالجمر .

قلت له كالمأخوذ - « انك رائع يا ناجي . . حنون . . انك رجل فذ » .

قهقه فجأة واراد ان ينام وهو جالس وراح يتمتم - « كلا . . لست الا صعلوكاً خددته التجارب وحده ودون ان تطاله بالهزيمة . . »

- « هل تذكر اول لقاء لنا في المقهى . . كنت استريب

منك . . ألا تذكر تلك الدعوة الى اللحظات الدرويشية التى استغرقنا فيها حتى وصلنا درجة الصفاء الروحي . . »

- « فلنفعل ذلك الآن . . دعنا نصمت . »

وصمتنا في الليل ، وكانت الريح تعول في الخارج ملقية باصواتها بين زوايا البيوت المتطامنة في ذل . . ونام ناجي حنون . وانسللت مع بداية الفجر .

٧

كانت الشمس قد ألقت اشعتها البيضاء على جدران البيوت وامتدت ظلال الصباح باردة على الازقة الضيقة المتشعبة . . وكنت قد قررت اليوم عندما التقي بوجه « ابتسام » في الدائرة ان انهي جدار الصمت بيني وبينها ، ملغياً شروط العلاقات الباردة التي قامت في ما بيننا منذ بدئها على اساس من التردد ، وكنت امتلئ في الصباح بذلك الاحساس العجيب بانني اتقدم نحو ابراج الصمت لأغمد سيفي في الضبابيات المتكومة امامي مزيحاً طبقة من المعاناة الكالحة التي ترسبت في الاعماق من نفسي المكظومة على السر . . وكان ظل ناجي حنون وصوته يلاحقانني في تفكيري المتواصل بابتسام وكان وجهه يتراءى لي

ويعاودني باساريره التي تتقلص بين السخرية والشجاعة .

وفي الدائرة التقيت بها تتظاهر بالبرم واللامبالاة على عادتها كلما خلقت الصدفة لحظة التقاءٍ بها بعيداً عن أعين الموظفين الآخرين . .

قلت لها - « اسمعي ابتسام . . كل هذا لن ينفعنا ابداً . »

التفتت اليّ وكانت في يدها اوراق رسمية وتبحث باليد الاخرى عن اوراق غيرها ، . حملقت بي بعجب ودهشة وقالت بصوت يشبه ان يكون استنكاراً - « كيف . . ماذا تقول . . انك لا تستطيع افهامي »

- « اقول لك . . ان كل ما نتظاهر به هنا لن ينفعنا قيد شعرة . »

- « ولكن هل حدث اننا تظاهرنا معاً بشيء مبطن بالسر بيني وبينك »

- « اجل . وكوني شجاعة . ولن تغالطي معي بعد اليوم ، ولن اغالط نفسي معك . . انني احبك واشتهيك . »

وقفت مذهولة وحملقت بعينيها تتفحص الحيز الذي احتله . ارتخت الاوراق نسبياً في يدها ولم تشعر بذلك جيداً بينما كنت ألاحظ ذلك بوضوح . .

- « كيف يمكن ان يكون ذلك صحيحاً . »

- « انا استبطن كل مشاعرك منذ البدء ، وفي الوقت الذي افكر بذلك يكون ما يحصل في الدائرة معك صحيحاً . »

- « انك تتحدث بالمنطق . . وتدعي انك تحبني . . »

- « تأكدي انني احبك . . كوني شجاعة وتقدمي اليّ »

- « انك لمجنون . . »

- « قلت لك انني احبك واشتهيك »

زمت شفتيها فيما يشبه الغضب والقت عبارتها - « ليكن . . »

ومضت مثل ثورة جامحة لا يقر لها قرار . مضت الى غرفتها مع الموظفات الأخريات ، بينما امتلأ صدري بطوفان من العذوبة والانذهال والترقب . كانت الساعة التي اعلنت فيها عما في نفسي ساعة عظيمة من الزمن . . عاودت ترقبي لها علني التقي بها مرة اخرى بعيداً عن اعين الآخرين ، الا ان الدوام الرسمي للدائرة انتهى دون ان اواجهها بمعنى تصرفها الأخير ، ورأيتها تخرج من الدائرة في نهاية الدوام وتذهب في طريقها مقطبة مشغولة .

٨

ادور كالحصان المشدود الى اللجام ، أدور في كل الطرقات

والشوارع .. عيناي زائغتان كأنهما ملئتا رصاصاً . . احس في فمي طعم الملح الممجوج ، ينز جسدي عرقاً ولهاثاً ، وانا أدور في الشوارع واقف عند واجهات المقاهي الكئيبة القذرة ابحث عنه . . كان قد مضى ما يقرب الشهر منذ غاب عني وجهه وترك الدار تصفر بالسكون والصمت مغلقة الرتاج دون ان تنفتح مواربة كما كان يفعل دون مبالاة ، كان قد مضى شهر تقريباً منذ انقضاء الليلة التي حدثني فيها عن نفسه وماضيه ومنذ صارحت « ابتسام » في اليوم التالي واضعاً بين يديها اسرار النفس الكظيمة الموءودة ، ذهب في غموض محير كما جاء الى المقهى اول مرة محاطاً بغموضه . . سألت عنه ، لم اجد هناك في المقاهي والشوارع والتكايا من يعرفه ، وشتمته في نهاية الطواف المضني ، وفكرت انه ربما أنهى حياته انتحاراً ومضى الى الابد دون ان يغرق وجهه مرة اخرى بالطوفان الذي يعيشه ويرميه دوماً الى مجهول لا يدرك . .

وفي اليوم التالي لم اكن قد انتويت السؤال عنه غير ان ما كان يسيرني بقوة غامضة هو الذي دفعني الى ان اتجه الى نصب الحرية . . تظللت على الرصيف برهة واستروحت نسيماً ينحدر عليلاً صوب النصب ويتساقط بعشق كالمطر الناعم الذي يلمس الوجوه المحمومة ، وبمقابل الساحة المدورة الهائلة حيث

تدور حولها السيارات بتصخاب وضجيج كان يقتعد حافة المستطيل الاسمنتي حيث تنمو ثمة بعض اغصان الورد الفقيرة الذليلة . . نظرت اليه بتمعن وشك ، كان هو يسدد اليّ نظرة لا مبالية ولكنه تقدم نحوي متثاقلاً . .

ـ « أهو أنت ايها الشاب . . يالك من احمق »

ـ « لست انا الأحمق . بل انت يا ناجي حنون ، كان عليك ان تدع الطلاسم ألحقيرة التي تغلف بها نفسك وتصرفاتك»

ـ « ولكن لماذا لا تسمعني اولا ايها الصديق . . انا لست طلسماً كما تتصور . . اسمعني فقط »

ـ « انت تمتاز بحقارة بشعة . . اتريد ان تثير عندي صورة لرجل مغامر . . ما اتعس ذلك »

ـ « فعلاً . . ذلك غاية في التعاسة ايها الصديق . ولكني لست نبياً »

ـ « قل لي كيف يمكن ان تتوصل الى تحقيق الصورة التي تريد . . ما انت إلا رجل عادي »

ـ « لست عادياً ايضاً . . اسمعني فقط ايها الصديق . . إن ذلك غاية في التعاسة »

ـ « أيـة تعاسة تريد ان تثير زوبعتها في شخصك لتبدو خارقاً ؟ »

وكاد ان يبكي . رأيته ينكفيء بوجهه الى الارض ويحدق مستغرقاً في ذهول حول المكان الذي تقف فيه ثم يرفع عينيه وهما تغيمان وراء طبقة لامعة من دموع كبيرة . .

- « اسمعني ايها الشاب . . لقد وجدتها . »

كنت فرحاً بلقائه في واقع الأمر . . لم يهمني كيف استقبلته كان يثيرني اني وجدته قائماً امامي دون اية شكوك . وفي اللحظة التي القي فيها نهاية عبارته توقفت عن الكلام مجبراً . . وهمهمت - « من . . من يا ناجي حنون ؟ »

- « وجدتها يا صديق . . ذاوية مثل غصن نفض خضرته وطرح ثماره وجف وحده في عري الصحراء »

- « اتكون هي اذن . ؟ »

- « هي يا صديق . . اتذكر « نوال » المومس . . لقد اضحت تستجدي الأكف . . عثرت عليها تستجدي فعلاً في منعطف من شارع السعدون . . عرفتني المومس . . اخذتني الى الخرابة ، وبكيت في حضنها كالطفل ، ونمت معها أحرسها من الضيم »

همهمت في وجهه كالمذهول - « ناجي حنون . . . »

- « كنت معها فعلاً يا صديق طيلة هذه الأيام . . رائحتها . رائحة الماضي . . الخدر والفراش وعطورها الخاصة . . زاولت

معها ساعات من الصمت كنا خلالها نبكي كأطفال ضلوا في شعب من الطريق . . آه يا صديق . . »

هززته بقوة . كان ظل النصب يمتد كعريشة من العنب مقرورة وناعمة . هززته بيدي . . قلت له في النهاية وانا اصحو - « ماذا ستصنع . . تعال معي . . تعال معي . »

توقف لحظة ثم رفع عينيه في ارجاء المكان . قال لي في ثقة تنبعث كما تنبعث شرارات عينيه الدبقتين - « سأعود بالتأكيد . . ولكنني سأعود معها »

صرخت فيه - « ماذا تقول . . انك لمجنون »

- « لن اتركها وحدها في الضيم الذي تجرعته زمناً طويلاً . . اتعلم . . لقد ضيعت وبعثرت من أجلي في الماضي كل ما لديها من مال . وها هي تعود خاوية من كل شيء . . لن اتركها يا صديق . . »

- « وماذا ستقول لأهل الشارع والزقاق والأصدقاء ؟ »

- « دعني منهم جميعاً . . انا لست بحاجة الى احد . . »

- « ولكنني اخشى ان يعترض الجميع ثمة . . وخاصة اذا هم عرفوا سرها »

- « يالك من مضحك . . وماذا يهم إن هم عرفوا سرها . . انها الآن بيضاء كغيمة صغيرة وديعة . . »

- « انني اوشك ان ارى شؤماً في كل هذا الذي تفعله يا ناجي حنون »

- « لا يهمني كل ما تقوله .. سأعود بها ايها الصديق .

وافترقنا .. كانت خطواته ثقيلة متعبة واهنة . . حدست انه ما يزال بعقله معي وانه يعرف في هذه اللحظة انني أراقبه في اسى ، لذلك حاول ان يستقيم في مشيته . . ابتعد باتجاه الطرق الشاحبة التي تقع خلف السعدون . ظل يتوغل منحشراً بين الناس حتى لم اعد اراه .

٩

ينبثق المستطيل في الظلمة .. تتنور حوافه بالغيمات وتتمطط خطوطه بينما اقف انا على العدوة .. تقبل « ابتسام » بجسدها الهائل وتمتد امامي كالاخطبوط في كل الاتجاهات . وتبدأ ترفع ذراعيها نحوي وتلتفان حول عنقي . كنت يابساً لا أريم بينما كانت الذراعان تهصران العنق هصراً مروعاً . . تصاعدت الابخرة موشوشة كالفحيح . . وفي البعيد اطلعت الأشجار اعناقها واستحالت اشباحاً راحت تتعالى رؤوسها وذوائبها متشابكة في فوضى وحركة موصولة موصولة ، تتداخل مع حافات

الغيوم المضببة .. وحينما دمدمت الريح اتخذ وجه « ابتسام » ملامح انـدلاعـة الشبق بينما راحت هي نفسها تعوي كذئبه جريحة .. أمتد انا في المستطيل المتعرج الخطوط شاعراً بكثافة ثقل جسدها لاصقاً بي ملقياً بثقلـه ساحباً معه همهمات الجوع والأنين .. تختفي الأبتسامة الغريبة المرتوية وتنمحي فجأة ويهل من وراء خطوط المستطيل المضبب مطر العوالم البعيدة منطفئـاً مرة واحدة تاركاً خلف خطوط الليل اللاهث لا غير ..

استيقظت متعباً . احسست بمرارة لاذعة . جبت تفاصيل الحلم المنطفيء واستعدته في غرابة وذهول .. كان الصباح صيفياً محملاً برائحة العرق والنتانه ، ولم اكن صاحياً كل الصحو ..

لبست مـلابسي واجتزت عتبه البيت ، وقبل ان اواجـه المشاهـد الصباحية وانا اتوجه نحو الـدائرة ، عرجت على دار ناجي حنون .. وجدته مغلقاً .. انه الآن معها .. جاء بهـا منذ ايام واغلق دونها المنافذ والأبواب وتحول انسانا كالصرصار .. لم يعد يلتقي باحد . بدأ يخرج على وجل وكآبة وهم ، يبتاع له ولها زاداً ثم يعود مسرعاً الى الدار ويتوارى فيها كأنه مصاب بالجذام .. وقفت ازاء الباب ، ورحت انصت .. لم تطرق اذني نأمة من الـداخل ، وخمنت انهما يزاولان عملاً ما في ركن من البيت يفوح منـه السحر . كان جسدي يرتعش ورأسي يشتعل

بعالمه الصاخب بلا قرار ، وكنت مخذولا وحدي شاعراً بأسى بليغ . . قطعت المسافـــة الى الدائرة وليس معي ما احمله الا صورة الحلم والكابوس وعالم تضج طبوله في الصباحات الصيفية.

التقيت بوجـه « ابتسام » في الـدائرة ، وعجبت كيف يبدو رائعاً ومستسلماً في آن واحد رغم كـل طفاوات التمرد التي تظهر على شكـل قساوة متصنعة . وحينما كـانت تريـد ان تتحرر - جاهـدة - من اسار النظرة التي كنت اسدها اليهـا بتصميم ومضاء ، كنت على يقين من انها لن تكون الا لي هذا اليوم وليس غداً .

- « ابتسام . . لقد مضى علينا زمن طويل منذ صارحتك .. لماذا لا تكونين لي . ؟ »

صمتت فم زفرت - « انك تطالبني بما لا طاقة لي عليه »

- « انني افهمك . . لا تراعي . انا استبطنك ، ولن ينفعنا تظاهرنا بالجهل »

- « ماذا تريد مني . . ها انني انتظر منك ان تفعل شيئاً . »

قاطعتها - « انك لي منذ اليوم . . احبك واريدك . »

- « انك رجل نظري . »

- « لن اكون نظريا تجاهك »

- « والكلمات تطرحها كيفما تدور في ذهنك »

ـ « اترين . . لا وقت للكلمات ، اذن »

الريح تتطارح مع القمم في الاعالي ، ونحن انسانان يتعاطيان افيون الارض والجسد . . الموعد بيننا يستبق اللهاث.. والضفاف تنتظر أوبة السفن المغامرة التي طال عليها امد السفر والطيور المحلقة في الفضاء كانت تهوي على الصخور الناتئة تضربها بالجناح راعشة نازفة . . وبيني وبين ابتسام الخيط الرفيع من زمن الانتظار والكبرياء والتعالي ، ثم يتقطع فجأة ويتهاوى طرفه إلى الأرض ليمسح عنها الظمأ . .

١٠

صوتك يا ناجي حنون يأتي إليّ في هالة الساعة مثل صفير حاد ، يخترق اذني ويصلبني أمامها كالمأخوذ . . صوتك المدهون بالاثم يحاورني في الاعماق ويطلق القهقهات غارقا فيها بدعارة . . واسمعك تقول ـ « كن مثلي ايها الشاب . . لن تدعها تفلت من يديك »

أتقدم خطوات منها وهي ازائي تنتظر طقوس الحزن . . واسمعك يا ناجي حنون مرة اخرى ـ « انك تحبها . . أليس كذلك . . ولكن الحب يظل ناقصاً. بدون القطوس التي يحييها

الجسد . . » أحتضن جسد « ابتسام » . يستسلم الوجه الذي صنع حلم الامس . . تدريجياً يتشوه الوجه بدقائق التفصيلات التي ترسمها مستلزمات الطقوس . . يسقط المستطيل الحلمي كتلة هامدة ، وتستفيق اللحظات مرة اخرى على حركة الحياة تمضي في عاديتها بتجرد غير مبال بأحزان الآخرين . نحن هنا حزانى حتى أعماق الاعماق ، واستفيق انا على وجهها مصاباً بعاهة التفاهة حتى الموت . . كانت مستلقية ثمة وقد بدا كل شيء مثيراً للتقزز . . عبر صوت ناجي حنون المسافات والقى بالمزامير فوق رأسي وطفقت مواويل الحزن تتلو تأوهات اللاشيء . . اللاشيء . . اللاشيء . .

١١

انقضى يوم واحد كامل دون ان ينفتح الباب ويخرج ناجي حنون . . وفي اليوم التالي لاحظت ان الباب لم ينفتح وان الصمت في داخل الدار يوحي بقشعريرة بتُ ازاءها اعتقد بجنونه وشذوذه . . وفي اليوم الثالث تساءلت لماذا لا ينير الغرفة ذات النافذة المطلة على الطريق . . واعتقدت انه ربما انتقل إلى الغرفة الخلفية ابتعاداً عن فضول الناس ما دام يعيش

مع « نوال » المومس .

وفي الليل حينما تماوجت نسمة ليليـة عبر دروب الزقاق نقلت معها رائحة غريبة لا تخطر على بال . . وفي اليوم الرابع انتشرت الرائحة مثل طاعون مريع . . انتبه الآخرون ، ودبت حركة الاقدام في ذعر ورعب ، وبدأوا يتساءلون بالحـاح أي شيء يمكن ان تكون هذه الرائحة تجمع النـاس وسـاد بينهم الهرج ، وراحوا يطرحون تساؤلات عديدة وكنت بينهم صامتاً يلجمني الغضب والحيرة والذهـول . . انتظرت معهم ان يفعل ناجي حنون شيئاً ويبادر إلى فتح الباب ويقدم تفسيراً للرائحة التي تنبعث من داخل الدار ، الا انه كان قد احكم رتاج الابواب والنوافذ ولم تعد اية حركة او نأمة تترامى إلى الخارج حيث يحتشد الناس وحيث يسود بينهم هلع مزلزل . . تقيأ ثلاثة من الواقفين بسبب الرائحة وحملوا بعيـداً . . ارتفعت الأصوات محتجة اشد الاحتجاج ، ولم اجد مناصاً من ان اصيح باعلى صوتي - « ناجي حنون . . ناجي حنون . . اخرج . . اخرج . . »

التزم الجمـع الحاشد بالصمت المفـاجيء إذ حملتهم رنة الأسى الموحش في كلماتي على ان يلتزموا صمتهم في رهبة وخشوع.

عدت اصيح - «لماذا لا تخرج . . ناجي حنون . . اخرج »

انذهل الناس بعمق ، واعترتهم رجفة شديدة . . وفجأة تحركت فئة منهم متوعدة مزمجرة ولم تنقض إلا دقائق حتى حضر إلى المكان أفراد من الشرطة ، وفي الساعة الواحدة بعد الظهر قرر الجميع ان يحطموا الباب ويقتحموا السر المريع .

انصفق الباب بشدة تحت تأثير الضغط المتزايد . . وامتلأت انوفنا بالرائحة ، وكدنا ننكفىء على وجوهنا كما لو انها العاصفة تقصف قاعاتنا وتسف في اعيننا الرمال . .

ورأيناه على مسافة من باب الغرفة المفتوحة على آخرها.. كان ناجي حنون يقتعد قريباً من جثتها الممدودة على السرير ، وكانت المومس مغلقة العينين وعلى وجهها المصفر تسوح رائحة الموت الرضي . . كانت عارية تماماً . . عرّاها ناجي حنون بعد الموت وطرحها هكذا على السرير عارية مثلما جاءت إلى العالم قبل عقود من الزمن لا ادركها . . كان جسدها ناعماً خالياً من آثار زمن العهر وكأنها تطهرت قبل الموت بمزيج عجيب من النقاء الخارق . . وكان ناجي حنون قابعاً وجامداً وقد جحظت حدقتاه وبان فيهما ذلك الشيء الهائل الذي كان يبدو كما لو انه يكشف عن حقيقة كبيرة كانت قريبة منه بعيدة عنه دهراً طويلاً ما عاشه الا ليلقاه هذا اللقاء . .

١٢

امامه ، وهو ينهض عن مقعده بمساعدة الشرطة . . امامه وحوحت كالمهزوم - « القى ما في يدك . . استسلم يا ناجي حنون . . » وكدت ازجر بها في وجهه ، لولا انه سدد إلي نظرته المليئة بالرضى والطمأنينة والفرحة . . بدأت حركة المحتشدين داخل البيت تأخذ طابع الوحشة الباردة ، إذ واصل بعض الافراد بمعية الشرطة رفع الميتة عن السرير ونقلها الى التشريح . . وتحرك اشخاص هنا وهناك مستطلعين ، وكنت اقف مذهولاً وسطهم واهمهم - « القى ما في يدك . . ايها الشيخ المأفون . . » ابصرت ابتسامة فوق وجه ناجي حنون . . وعندما تقدم اليه الحاضرون ليقتادوه أطاعهم في ذل ثم مشى واهناً وعدّل قامته في النهاية ومشى بينهم الى الخارج .

بقيت وحدي . . خرجت الى هواء العالم . . وكدت ان ابكي . .

حكايتان عن المدينة « ن »

الحكاية الأولى : العلاقة

انا مواطن من المدينة « ن » ذات الشوارع المتآكلة ، المترعة بالألوان والوحل . أحمل في رأسي المحموم مشروع عمل ، القيام برحلة لعينة الى الداخل . انحت كلمات للعالم المهووس ، وابحث عن الاكتمال النهائي لقصيدة نثر يرين ثقلها المدوخ فوق جسدي المنهك كله ، ساعياً خلال تجوالي المأفون فوق الأرصفة الرمادية الى مسك القصيدة كمخلوق من طرفها الأول لتتوحد الكلمات من بعد نسيجاً من نزيف البحث والضياع .

تتقاذفني المقاهي المسائية الكئيبة ، ارتادها غارقاً بلذة درويشية في دوامة الضجيج . . صوت المذياع والتلفزيون والصور المتتالية دون انقطاع وحركة المارة المنتظمة كشيء غير قابل للتطويع والتبديل . . غالباً ما تستبد بي حركة العالم في

الدوامة الهائلة فاستحيل فيها الى رقم يتقافز ضمن الارقام ، وتنتابني الكآبات كمرض ملازم ، واظل افكر بصور الأطفال في البراءة التي تتأبى على الموت . . اطفال سونغ ماي واطفال المخيمات اصدقاء الرياح والمطر والجوع واطفال بحر البقر الذين كانوا يحملون قراطيسهم في الصباح الجهنمي ، وسيقان الميني جوب في اللامبالاة الأخاذة التي تشكل ركناً هاماً في سلوك المواطنات المتحضرات في المدينة « ن » . . الناس هنا يتحركون بقدر مرسوم سلفاً . . الألوان الفاقعة استوردوها مجاناً ولطخوا بها الأوجه والعمارات والسيارات وكل شيء . استحالت الألوان قوانين ثابتة مادامت تستورد من مكائن العالم الدوارة حيث تصنع اسلحة الحرب مع دهان الوجه واحمر الشفاه والمساحيق الاخرى التي تحيل الجلد الى قطعة ناعمة .

وانا هنا في المدينة « ن » ابحث عني . . عن وجهي . . لا اجدني هنا ولا في اية زاوية من المدينة . لا ادري اين تستقر « الانا » التي تخصني ، غير ان ابواب المدينة « ن » تواجهني دوماً . . ابحث عني ؟ هذا كذب مدسوس وحقير ، فانا ابحث عن الصورة الاخرى ، ابحث عن أمرأة اسمها « منال » لم اجدها في اي مكان محدد بالذات ، غير ان صوتها يأتيني مهدهداً بدفئه عروقي المتيبسة في الجسد الممصوص . . انا رجل مواطن في

المدينة « ن » املك قضية واحدة هي مبرر وجودي الوحيد ، تأريخي وعلامتي الفارقة وسط ألوف العلامات ووسط احتشاد الوجوه المصبوغة بالدهان . . « ومنال » أمرأة لم أرها ابداً . فقط اسمع صوتها المهدهد في ساعة من ساعات النهار . . بعدها اعيش طافياً فوق سحابات الدخان والضجيج والمقاهي والحركات المسيرة بفعل قوانين لا تقبل التبديل ومن خلال ذلك يترشح الفرح كاليتم .

وبدء الحكاية انني ـ انا المواطن الذي يسافر الى الداخل ليحقق مشاريع لقصائد النثر ـ في احد الايام كنت اقوم بعمل لا يمت الى هواياتي بصلة اذ كنت اتصل برجل مجهول لا اعرفه مطلقاً ولم يخطر ببالي انني سأدير قرص التلفون لأتحدث معه حول موضوع مكرس لقضية خطيرة . كانت لعبة فرضتها حالة من حالات الأفك والدوران والسأم . . غير انني عندما أدرت الرقم فعلاً وانتظرت بضع ثوان جاءني بغتة صوت أمرأة . .

ـ « من تكون . ؟ »

ـ « كنت اطلب انساناً لا اعرفه »

ـ « ولكن لا يوجد هنا احد »

ـ « اعرف ذلك . »

ـ « وماذا تريد بعد ؟ »

- « دعيني اكن صفيقاً . . اريدك انت »

- « انك لا تعرفني . »

- « اعرف ذلك . »

- « هل انت وحدك ؟ »

- « انني اعيش الوحدة كمسألة مفروغ منها »

- « اتصل بي في وقت آخر . . هل حفظت الرقم ؟ »

حفظت الرقم ، وكأنه رقم هويتي الخاصة ، غير انني لحد الآن لم ازاول مهنة المرور الى المداخل الاخرى للمدينة ومعي الهوية . انا رجل مواطن مفتوح من جهات متعددة تتناوشني التخوم البعيدة سالخة جسدي قطعة قطعة .

وفي الايام الاخرى ظللت ادير الرقم ليأتيني صوت المرأة التي اسمها « منال » . يهدهدني الصوت الدفيء في لحظات اللعنة المنثالة عليّ ابداً . .

- « انت مرة اخرى ؟ »

- « اجل . بدأت اقتات على المخاطبة معك . »

- « وانا كذلك . »

- « هل تعيشين وحدك ؟ »

- « انا اعيش الوحدة كقضية مفروضة عليّ »

- « لماذا تكون الصدفة عاملاً للتغيير ؟ »

- « فعلاً . . لقد تغيرت انا كذلك . بدأت انتظر لحظة المخاطبة معك . »

- « هل انت مواطنة موجودة في المدينة « ن » ؟ »

- « في طرف مضيع منها . انت تتصل بي منها ، أليس كذلك ؟ »

- « لا ادري . . ولكن ليتني التقي بك . . »

وفجأة لا يعود صوتها صافياً متخماً بالدفء الذي افتقده في الساعات الاخرى بل يأتي اليّ منهوباً بفعل التفكير والانذهال . المرأة تفكر . المرأة تعود مخلوقة مرمية في زاوية مهملة من المدينة « ن » مسلوبة من الحركة والاختيار .

وفي الايام الاخرى ، بدأت انتظر الساعة الملائمة لأدير رقم التلفون ، وانا أحمل القلق الجامح المدمر الذي يحيل الزمن حرائق مدمرة . . لم تعد الايام لتكتسي باية لمحة من اللون الشهير سوى لون كلماتها على التلفون . . تبدأ الكلمات مظللة بالدفء ، وتتهدج بالتالي فيما يشبه الانين المكتوم .

- « لم اسألك من قبل عن اسمك ؟ »

- « هل يهمك الاسم . انه لا يحدد الفكرة . »

- « فعلاً . . انك شمول معذب بالنسبة لي »

- « وانت ايضاً . . اسمع . . لقد ادركت انك شاعر . »

- « اجل . وكنت واثقاً انك ستعرفين . »

- « لم يقل لي احد . غير انني عشت حدساً عجيباً بذلك وادركت جانباً منك »

عشت معها هكذا ، سمعت منى قصائد كثيرة عشت مخاضها بتفرد بينما كانت هي تستكين في رهبة على الجانب الآخر من التلفون وتبكي احياناً في حرقة . . كان اسمها « منال » . . كان صوتها هفيف شراع مسافراً في البحار الغارقة في السحب المقببة من ارض النار ومن مناطق استوائية حيث تقرع طبول الليل . . كان اسمها « منال » . . وكان صوتها هو خبزي وزادي في النهاية . . بدأت تتحول مستحيلا لذيذاً لا يمكن لي ان ألقاه الا في فجاج من الارض مجهولة لم تطأها قدم . .

- « منال . . لماذا لا نخرج من مخبئينا في المدينة »

- « دعنا في مكانينا الآن »

- « يبقى وجهك هدفي . . »

- « وانت كذلك . . تتشكل صورتك هدفاً لي . ولكن ما حيلتي . . دعنا نقف على اطراف المدينة بعيدين نتشوف الى القادم الحبيب »

- « يا حبيبتي . . »

- « يا حبيبي . . »

ها انذا المواطن المتسكع في طرقات المدينة « ن » ازاول مهنة الانتظار والوحدة والاندماج معاً . . اضحيت في وسط الحشد املك وجهاً يحمل سمة العصر المليء بالكآبة . لا اجد مبرراً للعلاقة بيني وبين الآخرين سوى صوتها ، ذلك الشيء الذي يأتيني مثل نثيث الندى الناعم . والمرأة التي اسمها « منال » تظل تنتظرني هناك على العدوة الاخرى من المدينة . . وحدها وحدها . . وكلانا يحمل بصمت - الخبز والزاد ، نلتم حوله وتتقارب المسافات به واذ يتعانق الصوتان عبر اسلاك التلفون تذوب كآبات ايامنا كلها . .

عاماً كاملاً ونحن نقطع الرحلة ونحمل الزاد واليقين . . قصائدي جميعها حملت خصب الارض . غير اننا كنا نبحث عن المنابع فيما وراء التخوم . . وهكذا خاطبتها ذات يوم بعد ان ادرت الرقم - الهوية . .

- « لم يعد لدي متسع للصبر . »

- « انا مثلك . . يحرقني الصبر والمسافات . »

- « لنلتق ذات يوم . . »

- « سأكون بانتظارك يا حبيبي . لابد ان نحقق لقاءنا مهما تكن الصعاب »

- « اين سألقاك يا حبيبتي ؟ »

- « ابحث عني . »

- « ابحث عنك في كل زوايا الارض »

- « ستجدني اذن في العمارة المؤلفة من ستة طوابق في الشارع الرئيسي المؤدي الى الباب الشمالي . . سأكون في الطابق الخامس »

- « في اي وقت ستكونين هناك ؟ »

- « في كل الأوقات سأكون . . ابحث عني في الوقت الذي يحل فيه العصر »

الحكاية الثانية : اللقاء

اتجهت الى العمارة المؤلفة من ستة طوابق في الشارع الرئيسي المؤدي الى الباب الشمالي . . كان الوقت حوالي الثالثة والنصف بعد الظهر ، اسبق الخطوات بشكل جنوني واعبر الشوارع حالماً بوجهها كيف يكون . . لقد حفظت في الماضي صوتها حتى غدت نبراته جزءً من الزمن الذي احياه مكثفاً بالدوران والبحث ، بينما بقيت صورتها بعيدة عن التجسد الا في المخيلة المكدودة الباحثة عن التشكيل الحقيقي للوجه والصورة والمادة التي تحتل حيزاً من المدينة « ن » . . فكرت وانا في

طريقي الى العمارة القائمة في الشارع الرئيسي المؤدي الى الباب الشمالي ، فكرت في الطريقة التي سأهتدي بها الى « منال » . . هل سأهتدي اليها بمعرفة الصوت ام بالرائحة ام بلون خاص تتكشف هي عنه ، ام انها ستلوح لي كمنارٍ قائم في وسط الجزر البحرية يهتدي اليه كل تائه آيب من تعب السفر . ؟ وفكرت ايضاً ماذا سأقول لها ، وكيف اضع بين يديها تاريخ حياتي ومن اين ابدأ ، والايام التي تقضت بيننا دون ان نلتقي الا عن طريق الرقم ، كيف سأطرحها بيننا وهي محملة بعبء الاحساس والانتظار والتوحد ؟ .

أزحت في النهاية افكاري المتصارعة المحمومة وانا اقطع الطريق ، وعزمت على أن يكون اللقاء بيني وبينها عادياً وطبيعياً ، ذلك لأننا عرفنا الأسرار منذ زمن ، واننا حينما سنتحدث في مكان ما لا اعرفه بالضبط غير انه ربما سيكون فى الطابق الخامس من العمارة ، سنتحدث فى مسائل صغيرة وبسيطة وبهيجة ، واننا سنضحك كثيراً كطفلين غريرين يغمرهما المرح الطفولي الى حد النزق . . ما عدت استطيع تصورها وجهاً يحمل نفس سمات الآخرين فى المدينة « ن » . . صوتها هو الذي يدعوني فى الداخل كنداء عميق محبب ، وصوتها هو الذي يظل نبرة ايقاع تفتح لي أبواب الرياح لتتسرب رخاءاً وأمناً وطمأنينة .

واجهتني العمارة بعد ان اجتزت كل الطرق والشوارع المؤدية اليها . . وكان الناس يحتشدون بصورة آلية فى مواقع متفرقة ويتطلعون إلى الملصقات الصورية الكبيرة لبعض الأفلام ذات الطابع البوليسي والمتوحش . . كان يخيل إلي انهم يشبعون هواية سرية من نوع ما شبيهة بتدارك الضعف والوهن الذي ينتابهم طيلة ساعات اليوم . . كانت العمارة مطلية بالصباغ فى ثلاثة ألوان متقاربة ومتناسقة ، ولواجهتها بروزات هندسية تشبه المظلات المعقوفة إلى أسفل . . كانت العمارة توحي باحتوائها على اناس مختلفين تحتضنهم فى عشق دافىء وتخيلت أية جدران ندية بالكرم تلك التي تحتوي « منال » فى الصوت والصورة ، غير انني كنت قد وصلت الى العمارة متأخراً خمس عشرة دقيقة من الوقت ولذلك كان بعضهم ينصرف فى لامبالاة وفي حياد بارد ، ويولي اكثرهم وجهه شطر جهات متعددة من المدينة . . ولاحظت قبل ان اقترب تماماً من العمارة ذات الالوان الثلاثة انها تقبع فى ظل من الشارع يشبه أن يكون عتمة خفيفة لا تتشكل فيها ظلال الضوء ، ورجحت ان المساء هو الذي مد ظلاً من الدكنة الشفيفة تغلفت بها المداخل والممرات المؤدية الى العمارة .

وعند المدخل الرئيس للعمارة كنت احمل في قلبي هموم

سعادة غامرة وكآبة مداهمة تدافعت بغتة إذ سألتقي بالوجه الذي احلم به وبالصوت الذي احببته . وعند المدخل نظر إلي أحد الرجال بعجب واستصغار وقال لي - « أين تقصد ايها الرجل ؟ »

اوقفني فعلاً عند المدخل واضطررت ان أجيب - « انني اقصد هذه العمارة بالذات ، واريد الصعود الى الطابق الخامس . »

قهقه الرجل بحمق وقال - « ولكن المصعد معطل منذ نصف ساعة . » لم يثر ذلك أيما شيء ، واعتبرت تعطل المصعد مسألة اعتيادية في المدينة « ن » ولذلك قلت - « لا يهم . . سوف ارقى السلّم »

مضى الرجل . ودخلت العمارة .

مضيت ارقى السلم متكئاً على الحاجز الحديدي . . لهثت عند الطابق الثالث قليلا ، ولكنني عندما وطئت أرضية الطابق الرابع بدأت الهث بقوة ، ووجدت حشداً من الناس يقفون في جمود لا يريم ، واعينهم تتصالب على الباب الحديدي الموصد باحكام حيث تسود الظلمة فوهة المصعد وحيث لا يرى ثمة أي شيء ، وتمتد الفوهة الى الاعماق بشكل مريع .

كان الحشد يقف متزاحماً قرب الباب الحديدي ، وتدريجياً تصاعد اللغط بين بعض الافراد وهم يتناقشون بحياد وآلية في

مسألة انقطاع التيار الكهربائي وتعطل المصعد . . وفي البدء وقفت بينهم التقط انفاسي وانصت إلى بعض ما يقـــولون . . كانوا جميعاً كما لو أنهم يتنزهون ثمة في مواقعهم قرب باب المصعد الحديدي الموصد . وخمنت انهم يشبعون هواية اخرى تخلقها لهم المدينـة « ن » الخالية من مناسبات النزهة . وقد كنت قد تأخرت عن موعدي اكثر من عشرين دقيقة في لقائي بالصوت الذي احب ، ولذلك كنت اريد ان اقفز مرة واحدة الى الطابق الخامس غير انني سمعت أحدهم يقول :

- « كيف يمكن ان تبقى المرأة وقتاً آخر في المصعد . ! »

صلبتني عبـارته في المكان . عدت احتشد بينهـم واحتلب الخبر كالمعتوه . .

- « اية امرأة تعني ايها السيد ؟ »

نظر إليّ بعينين باردتين متعاليتين وقال - « يبدو انك طارىء على الحادث . .

هناك امرأة محصورة في المصعد منذ اكثر من نصف ساعة.»

- « من تكون بحق الله ؟ »

- « لا ادري . . ثم انني ارجوك ألاّ تكثر الاسئلة فلا شأن لي بذلك »

- « معذرة . . معذرة . . غير انني ألتمس منك ان

تقول لي من تكون هذه المرأة ؟ »

- « ايها الأخ لا شأن لي بذلك فأنا لا أعرفها ، ولم أرها قط ، غير انهم يقولون انها كانت في الطابق الخامس »

- « ما اسمها . . لو سمحت . ؟ »

- « قلت لك لا تكن لجوجاً في أسئلتك . . أنا لا يهمني اسمها . »

ران الصمت بين المحتشدين وصمتّ أنا معهم ، وكأنني اقسر قسراً على ذلك ، وخيل إلي ان الجميع يؤدون فجأة صلاة روتينية مليئة بالسخرية ، سئموا في الواقع كل ما يجري منذ انقطاع الكهرباء وتعطل المصعد ، ولذلك تهيأ قسم منهم للانصراف على عجالة ، حينما دوّى صوت المرأة المحتجزة في المصعد المعلق بين الطابق الخامس والرابع واصطدم بجدار المصعد وجدران الفوهة والحواجز الأخرى فترامى عبر ذلك جافاً مخنوقاً - « لماذا لا تتحركون ارجوكم . . اعملوا شيئاً من أجلي . . الى متى ابقى معلقة هنا . . »

واقشعر جسدي منتفضاً بفعل الصوت الذي اعرف رائحته وأعيش نبراته . أزحت كل المحتشدين وتقدمت ازاء الباب الحديدي . . لم أجد منفذاً أستطيع أن ألقي منه بصوتي المرتجف حتى الموت ، غير اني ابصرت نافذة الباب الحديدي

الموصد مغطاة بزجاج سميك . ألصقت عيني على الزجاج ورحت احملق كمعتوه . داهمتني الظلمة الكثيفة في فوهة المصعد الفارغة وراعني مشهد المصعد المعلق إذ أبصرت قاعدته تعلو فوق الباب الموصد ولا يبين ما في عن داخله عن ايما شيء . . جمعت جسدي وصرخت بقوة - « من . . من هناك »

تهيب الرجال لأول مرة وتراجعوا قليلا الى الخلف . احسست بحركتهم من خلفي ، وكان صمتهم يتحد مع صمت الفوهة في الداخل حيث لا تسمع انفاسهم ثمة . . وخيل إلي بشكل مباغت وأليم ان العالم ينحصر هنا في فوهة المصعد ويتقطر برودة وخواءاً .

جاء الصوت نافذاً بصعوبة من خلال الجدران والباب الموصد - « ولكن من تكون ؟ »

التفت إلى الحشد المتراص . . تحرك بعض الرجال اللامبالين ، وابتسم قسم منهم هازئاً . . لم ابال بل كنت أصرخ وحدي مرتعشاً - « أتكونين أنت منال ؟ »

وجاءني الصوت واللوعة - « من . . أنت . . ؟ ياحبيبي . . يا حبيبي . . كيف أراك بعد الآن . . »

- « ولكنني هنا . . جئتك احمل كل معابد الدنيا وصلواتها . »

- « كيف اراك . . بامكانك ان تسخر الآن . . »

- « كيف يمكن ذلك . . سأنتظر حتى تعود الكهرباء »

- « متى تعود الكهرباء . . انها مهزلة . انني معلقة هنا بين الطابق الخامس والرابع . »

- « اللعنة على المصعد . . اللعنة على المصعد . . لماذا استعملت المصعد ؟ »

- « كنت لا أصطبر على موعدنا يا حبيبي . . عزمت على أن أهبط اليك لألقاك في مدخل العمارة . »

- « اللعنة على المصعد . اللعنة على الكهرباء »

- « ولكنني أشتاقك إلى حد الموت . . كيف يمكن أن أبقى معلقة هكذا . . »

حينما حولت عيني عن النافذة الزجاجية السميكة واستدرت نحو الرجال المتجمعين وهم يرصدون علاقتي الفجائية المباغتة بما يجري داخل المصعد ، استباحني برودهم القاتل . كدت أتوسل اليهم ان يفعلوا معي شيئاً ، إلا انهم سرعان ما انصرفوا غير مبالين . .

بقيت وحدي هناك . . بيني وبينها جدار من الحجر الأصم وباب من الحديد ومصعد معطل معلق ثمة بين الطابقين الخامس والرابع . .

تحركت كالشهيد بين الطابقين الرابع والخامس ، اصعد

واهبط . . ابحث عن طريقة ميكانيكية لانزال المصعد ، كنت وحدي ، ولم يكن معي أحد يدلني على طريقة محددة . . ولم أكن أدرك اي شيء أفعله غير ان اتخيل الصور تترى بجنون ، ومنال تنتظر الخلاص . . تكثفت الاشياء واستحالت ضرباً من العجز المهول ، ولم يكن قلبي قادراً على تحمل الالم وحدي ، وتذكرت ان بيني وبين العالم والمواضيع علاقة قديمة يمكن ان تتحدد الآن بقوة لتنطلق الحقيقة الناصعة الكامنة في قلب كل مواطن في المدينة « ن » ولذلك انطلقت اعدو خارج العمارة والحلم الرائع يستغرقني . . تركتها معلقة هناك .. انطلقت اعدو خارج العمارة . . تتحشرج الكلمات الحارة في فمي الجاف . . يتموج جسدي بارتعاشة الحلم المبلل بالخلاص . . كنت اندفق في الشوارع مثلما تنتقل سورة الريح من مكان الى مكان . . بت اصيح فيهم هؤلاء الناس الذين كانوا يتسكعون كالموتى على الارصفة الخالية من الكهرباء . . بت اصيح فيهم أن يأتوا معي إلى العمارة وان نفعل شيئاً هناك . . لم يكن فيهم من احد ليلتفت الى الصوت الذي يترامى في فراغات الشوارع . كانوا جميعاً تتأكلهم اللامبالاة وها هي اصباغهم تزول عن وجوههم ويبدو الواقع مقفراً . . عدت بينهم موضوعاً قابلا للرصد والدراسة بحياد وموضوعية ، وفعلاً وجدت قسماً منهم يلتفت

الي في استغراق ذاهل ومتوحش ليتفحص الظاهرة الغريبة التي كنت اشكلها بعناد ومضي . . ابتلعتني الشوارع في النهاية ولم أعد لأجد احداً رغم كل الوجوه العابرة على الارصفة . . هبط الظلام ، بينما كنت مستمراً في العدو . . خلت الارصفة تدريجياً من السابلة . . بدأت المدينة « ن » تصفر في السكون والعتمة.. بقيت أعدو بين كل المنعطفـات ، وكانت هي معلقـة هذه المرة في رأسي كحلم محموم .

خرجت الى تخوم المدينة . . اجتزتها . . واجهت الصحراء وحدي ممتدة إلى اللانهاية ، وعندما مس وجهي المعفر تراب التخوم ، كنت اسمع انين الارض . .

صهيل على السلم

حينما أخبروك بالنبأ وطلبوا منك المجيء فوراً ، قالوا لك إنه يريد ان يراك ويكلمك في أمر خاص بينك وبينه ، وانه ظل يصر من خلال انفاسه المتعثرة على ان يبحثوا عنك كل الاماكن والزوايا والمقاهي الرخيصة والشوارع في بغداد . . حيثما انت . . يجب ان يطالوك ويأتوا بك ، واينما كنت يجب ان يسحبوك سحباً لكي تلتقي به مرة اخرى بعد ان قطعت بينك وبينه السنون الطويلة ، وتركت بينكما حجاباً ثخيناً مثل ركامات الجليد فوق قلبك المهموم . . وعجبت يا « عزيز سلمان » كيف مر اسمك من بين كل الاسماء في ذاكرته المعطوبة المغلفة بالخلل . . كنت لحظتها تقبع في المقهى الصغيرة حيث يعلو دخان السيكاير فى الجو الخانق الرطب ، وحيث تجالس المخدرين وتعاقر أسلوبهم الخاص فى الحياة والتفكير . . وسمعت لأول

مرة بعد أن تحدثوا اليك بكلمات قصار سريعة أنه ربما سيموت الليلة . ولم يرّف لعينيك جفن ، فما أقرب الموت من الناس فى نظرك وما اكثر الناس الذين يمارسون عملية الموت كل دقيقة وهم مفتحو الأعين وفى صدورهم تدق القلوب كساعة خربة متآكلة . . وكدت أن تضحك من عقولهم وان تطلق القهقهات وان تسخر أمام وجوههم الصافنة مثل وجوه البغال ، ولكنك بدوت ازاءهم مهذباً وقلت لهم دون ان يتحرك قلبك - « ليمت إذن . . ما علاقة ذلك بي . . ثم . . دعوني أسألكم ، لماذا يطلبني بحق الله . ؟ »

سمعتهم يقولون بحرارة - « أنت تعلم اننا بحثنا عنك وقتاً طويلاً . . وها أننا نتوسل اليك أن تأتي . . »

ومرة أخرى مرت فى صدرك موجة عاتية من الضحك حاولت أن تخنقها امامهم ثم همهمت - «انتم جميعا غريبو الاطوار . . حتى هو . . ذاك الذي يموت الآن . . تقولون انه عمي ، أليس كذلك . ما علاقته بي وهو يموت ؟ »

وجاءتك اصواتهم متلجلجة وسط المقهى الصغيرة - « انه عمك . . لن تستطيع أن تقول انه ليس بعمك . . نحن نتوسل اليك أن تأتي . . »

وتحاملت يا عزيز سلمان على قدميك المتآكلتين من طول

ما تقطع من شوارع ودروب وأنت تعيش على الهـامش حياة التشرد باصقاً على الوجوه التي تمر بك ، تحاملت ونهضت معهم وكأنك نعجة تساق إلى الذبح وما تزال تتدافع موجة الضحك والهزء فى صدرك المخسوف من السيكاير .. لم تبادلهم كلمة واحدة طول الطريق ، فأنت لا تختص بعاطفة تجاههم ولم تفكر فيهم لحظة واحدة منذ زاولت قطع الشوارع الذليلة وامتهنت المخدرات في المقهى الصغيرة .. مضوا بك يتعجلون في خطاهم وخيل اليك ان اقدامهم تلتف كالثعابين الصغيرة على بعضها وهي تتضارب على الطريق وكدت أن تقهقه ثانية ورحت تتساءل فى بهجة تملكتك بغتة - هل انا مهم حقا بحيث انهم يحيطون بي كشيء ثمين .. يالهم من حمقى .. » صعدوا بك إلى غرفته وأشاروا قائلين لك - « انه يرقد هنـاك » وحاولت ان تتذكر ملامحه المدفونة في ذاكرتك المخدرة ، وان تعثر على وجهه الذي كنت تحفظه في الماضي ونسيته في غمرة نسيانك لأشياء كثيرة. كان السلّم طويلا لم يتغير منذ تركته في زمن غابر ، وبدأت تصعده لاهثا معهم ولأول مرة أحسست بانك مهم حقا وإلاّ لما طلبك وألحف في الطلب ، ولم تعر لأحساسك بالأهمية قيمة تذكر وتمنيت لو يسحـق هـذا الاحساس بحذائك ، فلم يعد لهذا من ضرورة ككل الأشياء في نظرك حتى لو تحقق لك من

مواجهة عمك نفع كبير يبدل حياتك كلها . . وفي وسط السلم تذكرت كيف كنت في الماضي تصعده وتهبط منه كالغزال « وحليمة » تتنقل في بيت عمك مثل نسمة الصيف النازلة في اعماق الليل المحمل باللهيب . . . كنت تقول لها دائما - « حليمة البقلاوة » وتكركر حليمة بالضحك وتضربك على قفاك وتستحي في خفر يدير عقلك ويصعد في عروقك الدماء . . بلغتما معا في تلك السنين مبلغ الصبا وعشتما جنة الحياة ولعبتما كل اللعب التي تخطر في بال الأحباب وهم صغار كالحملان الصغيرة . . وفي ذلك اليوم الذي كدت ان تنساه يا عزيز سلمان كتبتما على جدار السلم المغطى بالسخام خطوطاً كثيرة متعرجة ومنحنية ومستقيمة وسجلتما اسميكما وانتما تعبثان . . ثم اخذوا منك « حليمة » وسرقوها من يديك كما تسرق الدرة الغالية واعطوها لغيرك وسحقوا قلبك سحقا وطردوك . . وكان عمك يومها هو الذي قرر طردك من البيت ، وهكذا بدأت حياتك الراهنة منسياً في زاوية من العالم . . تف على المقادير كلها يا عزيز سلمان . . اردت ان تتلكأ في وسط السلم محدقاً في الاسمين حتى عثرت عيلهما مدفونين في السخام . . ولكنهم لم يتريثوا معك ومضوا بك يصعدون السلم وانت تلهث بصدرك المتعب وعيناك على الجدار كالمأخوذ . . وفي الطابق العلوي رأيته ممدداً على

سرير حديدي متآكل وفراشه مبقع بآثار مقرفة . . حدقت في وجهه طويلاً وسحت في لون الصفرة الباهت وهو يحط على جلدة وجهه كالقراد . مرة أخرى أردت ان تقهقه كالمأفون وتساءلت - « لماذا أرسل يطلني هذا الوجه الميت ؟ » تجمعوا من حولك وأحدقوا بك وأحسست أن في حضورك إلى هنا مؤامرة تسعى إلى قتلك والاجهاز عليك يا عزيز سلمان . . تراجعت الى الخلف كالمصعوق وكدت ان تتقيأ ، ولكنهم ظلوا يُحدقون بك ويلتفون حولك كالمعصم ، كان عمك من دونهم مطبقاً على نفسه كالموت نفسه حينما يجثم بعناد ، وها هو يموت فعلاً . . ملأ اذنيك الصمت المطبق بآلاف الاصوات الخفية وتداعى اليك ضجيج غير مسموع بالمرة ، وتخيلت مخالب التنين تنشب أظافرها القوية في عنقك وتعصرك عصراً ، وصرخت أخيراً بالجمع الذي يحيط بك - « لماذا جئتم بي إلى هنا . ؟ » كان صوتك قوياً يقتحم غشاء الموت المرين ويهزه . ردّ عليك الابن الاكبر بجفاء - « لاتكن أحمق . . لقد طلبك وكفى . »

قلت لهم باصرار - « ولكنه يموت . ما نفعي به وما نفعه بي أيها الاوغاد السفلة . »

وسمعت احد ابنائه يقول لك بازدراء - « انت مجنون وستبقى مجنوناً حتى تلفظك الأرض . . ما دخلنا نحن . . لقد

طلبك هو . »

قلت لهم وكأنك تستغيث - « ولكنه ميت ميت . . ألا ترون . » قالوا لك جميعاً في صوت واحد وخيل اليك ان جوقة من الشياطين تطلق أصواتها في حضور الموت - « قبل ساعة كان يلفظ اسمك ايها المأفون » قلت لهم وقد أحسست بالموت فعلا - « انتم المأفونون . . انه يموت انه يموت . »

أحدقوا بك وتحركوا باتجاهك والتمعت أعينهم وزمجروا في وجهك - « حتى وهو يموت . . يجب ان تبقى هنا . »

ودار لسانك يابساً في حلقك ولم تستطع ان تتكلم بعد.. ركضت خارج الغرفة المليئة برائحة الموت ، وتعثرت قدماك بالعتبة وكدت ان تقع . . اندلقوا وراءك مثل شلال أبكم جارف . . كان السلم يضج بأحذيتهم من ورائك واصواتهم تأتيك متداخلة فزعة يضخمها رعبهم المسعور . . دفعت جثتك المتهاوية على السلم واصطدمت عيناك - لاتدري كيف حدث ذلك - بآثار « حليمة » التي أبقاها الزمن العجيب على الجدار ولكنك خلفتها مسرعاً وقد اهتاج في قلبك الفزع كالعدوى ، وأطلقت للريح جسدك الميت وبقيت تركض كفرس جامحة وهم يركضون خلفك كالريح المزمجرة ، وكانت الشوارع والطرقات التي تطويها قدماك تدور كدوران مروحة وبقيت تدور وتدور...

الأدانة

المحاولة

في غرفتي البائسة اللامبالية حيث تنتشر رائحة العفن وتخربش اقدام الفئران عابثة بالقطع الصغيرة والزنخة التي اخلفها من الاستعمال اليومي دون ان اكلف نفسي مشقة ازالتها ورميها الى الخارج . في داخل هـــذه الجدران الكابية المقفقفة كعجوز تجمدت اطرافها وحيث يمتد الظل المحمل برائحة الرطوبة والبلل ، قررت بشكل حاسم ولأول مرة في حياتي المهملة كشيء زائد عن هذا العالم ، قررت ان اتزوج من « مديحة » زميلتي في الدائرة التي اعمل فيها كاتباً قميئاً للصادرة والواردة . . ترددت مرات ومرات دون ان اتوصل الى حل نـاجع لعلاقتي العجيبة معها . كانت تتعمد ان تتجاهلني اثناء الدوام ، وكانت تبدو

متوحشة اخاذة في شكلها المتحفز للعداء والذي يرتسم بوضوح فوق وجهها الصبياني . . كما انني اظل بالنسبة اليها موضوعاً قابلاً للنقاش فيما لوطرحت المسألة على نفسها وقلبتها على اوجهها المختلفة . . ولم لا . . ألا ابدو رجلاً مليئاً بالتعاسة والبؤس والخواء وانا اعيش مستمراً كعربة فضائية دائرة الى الابد في دائرة فظيعة من الفضاء المجدب . . وبعد ان حسمت الموضوع مع افكاري المبعثرة ، ذهبت مساء نفس اليوم الى الحانة التي ارتادها على الدوام ، والتقيت بعيني « حنا » الشاب ذي الملامح الانثوية الذي يوزع المزة بسخاء مفرط ويبحث عن راحة السكارى ويعرف بالغريزة من يدفع ومن لا يدفع . .

ابتسمت في وجهه بمرح ، قال لي بمكر - « كيف يمكن ان تبدو هكذا . ؟ »

زعقت فى وجهه بمرح ايضاً - « اللعنة عليك . . حنا . . سأتزوج قريباً وسأسكر بهذه المناسبة »

فتح فمه الصغير الدقيق وبانت ملامحه انثوية حادة - « كيف تتزوج . . عليك ان تؤدي حساب البار اولاً . »

قهقه « حنا » وحده مستمتعاً باستقلالية عالية تبعده عن تصنعي لحالة المرح التى بدأت تتفاعل فى اعماقي مشوبة بصوت الخوف الذي يشلني احياناً ويشعرني اية وحدة رهيبة اعيشها مع

الآخرين . . قهقهت معه وقلت له بصوت البؤس الذي اعرفه كصديق - « لا عليك يا حنا . . طلب البار سأؤديه حتماً . . وسأتزوج بعد ان اقدم طلباً الى الدائرة بمنحي سلفة جديدة . . »

عدت آخر المساء ذاك ، مخموراً واعتكفت في غرفتي احاول أن اثير دوافع الخيال وامتد فيه الى اللانهاية واحلم بصمت حقيقي . . العالم هنا في غرفتي يدور كما يدور المغزل الذي يدور ثم يقف ليدور ثانية . . عالمي حدوده تقف عند نقاط العزل القاسي عما يجري هناك في الحياة التي يمارسها الناس الآخرون . . وعندما فكرت « بمديحة » قلت لنفسي انني ربما سأودع هذه الغرفة واتصل بالآخرين واصبح سوياً . . في الماضي كنت اتصل باشياء عزيزة ثم بعدت المسافة الزمنية بيني وبينها وتجمدت حتى باتت عندي احجاراً من الذكرى لا تثير ادنى عاطفة ، ولا ادري اليوم هل لا تزال الاشياء العزيزة لها قدرة الدوام ام هي توقفت عن الحياة كما يجري في عالمي هنا . . ابي وامي مثلاً . . كنت احبهما ، وعندما كبرت عن الطوق رفضت وصايته ذلك الرجل الذي هو ابي ورفضت ثقل حنانها الدبق تلك المرأة التي هي امي ، انفصلت عنهما دون دافع محدد غير دافع الانسياب خلف اسوار الأماكن المحملة برائحة الشوق في المدينة التي تعوي بالجدب . . لم اجد شيئاً من بعد . . اصابني البؤس كمرض

متأصل واعتدته كصديق ، وتشردت حتى سمعت بموتهما وحيدين .. حزنت عليهما ساعات قليلة وظلت ذكراهما عزيزة ، ولا ادري ماذا بقي بعدهما وماذا يمكن ان يكونا قد خلفا من اشياء ، وإن كان لي يقيني بانهما لم يكونا يملكان شيئاً ذا بال . . كل ذلك وحريق الحياة اللائبة التى ادور فيها كثور الساقية يؤججني دوماً ويرميني وحدي في اتون التجارب المتفردة الفائقة .

في صباح اليوم التالي كانت عطلة « الجمعة » . استيقظت مبكراً شاعراً بنشاط خارق يتمشى في اضلعي ، وصحو ناعم يتسرب فى مسارب عقلي المكدود . . أجريت حلاقة لذقني المهملة وعزمت على الذهاب الى حلاق مغمور في الزقاق الذي تقع فيه غرفتي ليسوي لي شعري ، كما اخرجت بدلة قديمة احتفظ بها لبعض المناسبات الطيبة التى يتواجد فيها العرق والمزة . وعثرت بين الملابس المصففة في الدولاب الخشبي المتهرئ على المسدس القديم وبجانبه بضع طلقات قد تكون فاسدة . . تلمست نعومة الحديد واقشعر بدني قليلا وتذكرت ابي الذي سرقت منه هذه القطعة القديمة من السلاح . . لبست البدلة المضمخة برائحة ماض ما ووقفت ارى نفسي وهيئتي وقد تغيرت نسبياً عن المظهر اللامبالي الاول وعجبت كيف ابدو بهذا الشكل الغريب المنقطع عن الحاضر بحيث يبدو الفرق الزمني هائلا هنا فى حدود المكان

الـــذي اقف فيه . . وتخيلت « مديحة » تبتسم فى استهتار صبيـاني وتحتضنني في جنون احمق . . ليكن . . عرجت على الرجلين اللذين قررت ان اصحبهما معي الى الأب لأطلب منه يد « مديحة » . . لا بد ان اصطحب معي اناساً آخرين غيري . . والرجلان اعرفهما معرفة طفيفة هزيلة وقد تبادلت معهما في بعض المناسبات كلمات عابرة تافهة ولا اعلم من امرهما شيئاً ولعلهما على الاكثر لا يتكلمان كثيراً ولن يتكلما معي فى امر الخطبة غير انهما محبـان بشكل جنوني للفضائح الشخصية ، وقد قلت فى نفسي ان حضورهما معي يفرض توافقاً اجتماعياً يرتضيه الاب . . وهكذا اصطحبتهما معي . . ورحت اراجع نفسي اي حديث سأطرحه على الاب فى طلب يد ابنته ومن اين سأبدأ فى هذا الحديث الذي اجهله تماماً . . .

الادانة

ظل الرجلان اللذان اصطحبتهما معي صامتين رافعين رأسيهما باستقامة واحدة مثل جملين يسريان فى هدوء الصحراء عبر كثيب الرمل . عجبت لأمرهما ونحن نقطع الطريق ، دارت فى رأسي عبارات مضطربة عن موضوع الخطبة كنت اريد ان القيها على

مسمعيهما واسترشد بما يقولان علني انهي الاضطراب الـذي اعانيه ، ولكني لزمت الصمت مثلهما ورحنا نقطع بقية الطريق الى بيت الأب .

حينما طرقنا الباب لبثنـا ننتظر لحظات ، وخيل اليّ انه يتحادث مع ابنته كما لو انه يسوي اللمسات الاخيرة من رتوش الصورة التي سيواجهني بهـا . . اطل الأب من فتحة البـاب المواربة وقطب في وجوهنا ثم اوسع لنـا الطريق وغمغم ببضع كلمات تساقطت بعجالة .

في غرفة الاستقبال الصغيرة اتخذت مقعدي في الزاوية المقابلة لباب الغرفة بينما جلس الرجلان في مكان الصدارة واتخذا مظهر الرزانة والتزمت وظلا صامتين وقد زما شفتيهما وبانا كتمثالين من شمع متجمد . فركت يدي اكثر من مرة وطامنت من سرعة انفاسي وتطلعت خفية الى وجه الأب .

كان يبدو صعلوكاً ولكنه نظيف المنظر ، ذلك ان وجهه كان مغطى ببقع من آثار مرض الجدري تتخلله كدمـات سود تنتهي الى حواف بيض لعلها بسبب مرض جلـدي لا اعلمه ، وكانت عيناه صغيرتين تتنقلان بيننا كعيني صقر مدرب .. رحب بنا بجمل قصيرة ، ثم نهض يقدم لنا من علبة سيكائره ، ومـا عتم ان نادى بصوت ضخم يستدعي ولده الصغير ليقدم لنا الشاي .

قطع الصمت ملتفتاً اليّ وابتسم لأول مرة - « في يوم الجمعة أؤثر أن ابقى في البيت ، فانت لكي تشعر بيوم الجمعة كعطلة حقيقية عليك ان تبقى في البيت . . »

ابتسمت واعتبرت ذلك بديهة لا تقبل النقاش واندفعت بحماسة مشدداً على مظهري الكلامي اقول - « طبيعي . . انه يوم لـه امتيـاز خاص عن بقية ايام الاسبوع . . حقاً . . يكاد ان يكون له مذاق خاص » .

التفت الي متعجباً - « مذاق خاص . . كيف ؟ »

حدقت فيه لحظة اتبين مقاصده - « اعني ان ليوم الجمعة مزايا عديدة تجعل لـــه تفرداً يختلف به عن بقية الايام . . أليس كذلك »

- « هاه . . انك لم تقل شيئاً رغم ذلك . . على اية حال انـا شخصياً اقضي اغلب الساعـات التي يتوفر فيها الفراغ في المقهى مع شلة من الاصدقاء ونلعب الطاولي . . . هل تلعب الطاولي . . ؟ »

- « ليس دائماً . . احب ان ألعبه فى بعض الاوقات »

سكت لحظة ثم اندفق يقول - « اتعلم . . لقد انبئت من احد الاطراف بالهدف الذي جئت من اجله . »

وابتسمت وانا ألاحق انفاسي بصعوبة . .

قال بعد ذلك بصوت بارد - « لقـــد سألت عنك قبل مجيئك بيوم . »

تململت فى مجلسي واتجهت عيناي دون ارادة الى الرجلين الصامتين . . سمعته يستتبع - « أيكون سالم حمزة هو أبوك ؟ »

قلت له على الفور - « نعم . . انه هو ابي »

- « ألم اقل لك . . لقد سألت عنك . . واهتديت الى ان اباك هو سالم حمزة . »

- « نعم يا سيدي ، ولقد توفي قبل اكثر من اربع سنوات . . أتعرفه ؟ »

- « ربما أعرف عنه الشيء الكثير . »

حملقت في وجهه المجدور واعتبرت ذلك استهلالا حميداً للدخول الى الموضوع الذي جئت من اجله .

سألني من بعد - « قلت متى توفي . ؟ »

- « قبل اكثر من اربع سنوات »

- « لشدما تقطع بالانسان السنون . . كم كان عمره وقتذاك ؟ »

- « لا ادري بالضبط ، ربما كان يربو على الخمسين . . »

- « وامك . ؟ »

- « هي الاخرى توفيت من بعده »

- « أتكون إذن وحدك الآن ؟ »

- « أنا وحدي قبل وفاتهما . انفصلت عنهما قبل ان يتوفيا »

- « ولكن لماذا . . ذلك شيء مؤسف ومؤثر »

- « ولكن يا سيدي ما هو الشيء المؤثر ؟ »

- « يبدو انك لم تكن راضياً عن حياتك معهما »

- « آثرت أن أكون وحدي »

- « هاه . . دعني اسألك سؤالا يخطر ببالي الآن ، هل استمر أبوك يزاول مهنته تلك ؟ »

اضطربت قليلا - « ظل يزاولها ثم لم يعد يستطيع على الاستمرار فيها فآثر ان يعمل دلالاً للدور »

- « أتعلم . . انني اذكر القصة التي حصلت لوالديك قبل زمن طويل . . ربما انت لا تعلم شيئاً عنها الآن ، ولكنني اتذكرها الآن جيداً كما لو انها حصلت امس . »

- « أية قصة يا سيدي . »

- « هاه . . يبدو انك لا تفكر طويلا بالماضي ، أو انك لم تسمع بها مطلقاً »

- « انا لم اسمع باية قصة يمكن ان تثير لدي الاهتمام . . ويبدو انك عاصرت احداثاً لم أكن انا قد ولدت حينها بعد »

وقهقهت بمرح ، ولكنه رماني بنظرة باردة فارغة من ايما دفء - « لا تضحك . . المسألة برأيي لا تستحق الضحك . .

واعذرني ايها الشاب ، فقد قلت لك منذ البداية انني سألت عنك بعد ان علمت انك تريد يد ابنتي مديحة ، وعندما عرفت ان اباك هو سالم حمزة فانه يترتب علي ان اذكر لك ذلك »

- « وماذا يضيرني يا سيدي من ذكره . . انه هو ابي حقاً . »

- « ولكن ألا تكون قد عرفت شيئاً مما حصل في الماضي ؟ »

- « كلا يا سيدي . لا أعرف شيئاً »

- « هاه . . ربما لم يخبرك احد بذلك أو أنك لا تعطي للماضي قيمة . ما »

- « ليست لي صلة بماضي اعتز به وقد نسيته . . ثم ان ابي لم يحدثني بأي شيء »

- « هاه . . اذن فهو لم يخبرك حقاً ؟ »

- « كان قليل الحديث معي وكان يريد ان يفرض ظله علي . »

- « هكذا اذن ، ولكن لا يعقل الا تكون عالماً بطرف مما حصل في الماضي يابني . . انا لا اقصد الأساءة اليك مطلقاً . . لا . . ولكنني هنا ابحث معك موضوعاً ربما يتصل بك وانت تطلب يد مديحة ولا ادري إن كانت بينكما علاقة تفاهم في الدائرة أم لا ، غير انني يهمني ان اذكر تفاصيل ما أعرف عن القضية . »

- « ولكن أية قضية يا سيدي . . انك تثير هواجسي »

صعد الى قمة رأسي نظرة تشبه ان تكون استعلائية ووقحة وابتسم دون مبالاة . « لا تقلق ايها الشاب . ، دعني اقول لك . . ألم تنقل اليك امك شيئاً ما ؟ »

بدأت اعاني انحصاراً هائلا الى حد الاختناق ، وفضاء الغرفة يستحيل خرم ابرة ، وصداع رأسي يعاودني بضربات متلاحقة من آثار العرق الذي شربته في اليوم السابق ، واحسست انني انسحق تحت وطأة الدقائق المهولة التي يفرضها عليّ الرجل على شكل كلمات متلاحقة صاعقة ، حتى اجبته اخيراً وكأنني استسلم اليه - « كلا . . كلا يا سيدي . . عفوك ايها العم . . لقد كانت امي أمرأة رحيمة حقاً ولكنني لم اكن احتمل حنانها بالصورة التي كانت توجهها إلي » .

- « أسمع إذن . . أتكون امك هي فاطمة صادق ؟ »

- « أجل . . أجل إنها امي »

- « لقد تزوج ابوك منها بعد ان اتصل عن طريق المعاملات التجارية ووكالات الأعمال الخاصة بصادق الحسن الذي اشتهر ببيع الدور وشراء الاراضي »

- « نعم ربما أعرف شيئاً قليلاً عن ذلك . . »

- « حسن . . إن أباك إستطاع ان يقنع صادق الحسن بالزواج من فاطمة التي رباها هو وزوجته المسماة رجاء »

- « تقصد فاطمة امي . . »

بادر يقطع عليّ مجال الحديث ، وانهمر كسيل متدفق يضحك في إستهتار - « ولكن لا اعلم ان كنت انت نفسك تدري ان رجاء هذه هي جدتك حقاً ؟ » .

احتواني الانشداه وتمتمت كالمصعوق - « تردد اسمها على مسمعي في ماض بعيد لا اذكره . . وماذا يهم ذلك »

- « ولكنها ايها الشاب ليست جدتك الحقيقية . »

شعرت باللهيب ينصب في جسدي . . التفت جهة الرجلين الصامتين المتزمتين ، كانا يواصلان جلسة المهابة دون حركة . . كنت وحدي اعاني الحصار وقد تركني الآخرون . .

استتبع الرجل - « لا تقلق يا ولدي . . انها في الحقيقة ليست جدتك فعلاً . . ذلك ان صادق الحسن وزوجته رجاء هما اللذان ربيا والدتك فاطمة كأي برجوازيين حقيرين »

صرخت في وجهه - « اية اخبار ملفقة تقولها انت . »

جمع كفه واشار الي بوقار ان اهدأ واحسست بنذر الوعيد تتجمع في عينيه وتستحيل ركاماً من التراب العابق بالجيف - « لا تثور بسرعة . . كيف يمكن ان تفهم ايها الشاب وانت بهذا الحال من الثورة . . ان صادق الحسن كان غنياً حقاً ولكنه لم يكن يرزق بولد من زوجته رجاء . . كانت هي العقيمة كل

العقم ، واستمرا هكذا زمناً طويلاً حتى اكتشف الامر »

زعقت مرة اخرى - « ولكن اي امر ايها الرجل »

حدد إليّ نظرة صاعقة وقال معانداً - « قلت لك إفهم أولاً . . ان صادق الحسن كان قد أقام علاقة من نوع ما مع أمرأة خادمة بائسة اسمها سليمة . . نعم انني اذكر اسمها جيداً .. هل سمعت بهذا الإسم ايها الشاب ؟»

قلت له بانهيار تام - « ما سمعت به . . اي شيء تريد من ذلك . . انك تهينني . . »

- « انا لا أهينك ، ولكن الامر هكذا . . ان سليمة حملت من صادق الحسن بنتاً ولدتها في السر ، وقد علمت بذلك زوجته وثارت في وجهه ، ولكنهما كأي برجوازيين حقيرين سرقا البنت من الأم الحقيقية وامتلكاها الى الأبد دون أي مقابل »

كدت ان اختنق ، وامتدت أصابعي إلى أزرار السترة وأحسست بعرق غزير يغرقني والتفت مرة أخرى الى الرجلين أطلب منهما العون ولكنهما كانا صامتين كالجبال .

سمعته يقول لي عبر ركام من ضباب ثقيل دان فوق عيني - « تصور ايها الشاب . . لقد رباها منذ الصغر ، ولم تكن فاطمة تعرف امها الحقيقية ، وقد تكون قد علمت في النهاية ولكنها كانت تحتقرها بقسوة » تمتمت في سري حزيناً كل الحزن

- « عليك اللعنة .. عليك اللعنة ايها الصعلوك . » احسست بحاجتي الى بكاء حارق طويل وعدت أردد في سري بحرقة واغتراب - « طعنتني .. طعنتني حتى الأعماق » صار حديثه يأتيني من مسافات خرافية - « تصور ايها الشاب .. ان صادق الحسن وزوجته اعطياها بعد ذلك لوالدك بسهولة ويسر رغم ان أباك كان فقيراً »

صرخت في وجهه مستوفزاً ومنهاراً - « انك تلفق الأحداث . انك ملفق حقير »

- « لا تقل عني ذلك . . أنت رجل لا تقيم اعتباراً للماضي أو أنك تتعمد احتقاره بنفسك .. لماذا . . تصور إنك بمكاني في هذا الأمر الذي جئت من أجله فماذا كنت تصنع . . »

حرقته بنظرتي الهائجة ، حاولت ان أقول له من بعد شيئاً فعييت . . عييت حتى لفني صمت شبيه بصمت الموتى . . عصرتني اليد الهائلة وارتميت وحدي كجسد خائر فوق ارضية الزمن الغادر العصوف ، وبدأت أتحول رويداً في داخلي الى رمم موصومة بالجرب والقيح ، كان فحيح الألم يصعد بي وأنا الشهيد الشهيد ، يصعد بي حتى اشهق واصيح - « آه . . آه . . آه . . .

لقد طعنني النذل حتى الأعماق . . ايها الناس انني وحدي

هنا اغترف الصديد » وتلفت كالمعتوه نحو الرجلين ، اطلب منهما ان يحملاني بعيداً بعيداً ، ولكن لا فائدة لا فائدة . . اصبحت جسداً يمتص القيح ويفرزه . . تساقطت من فوق المقعد ثمرة فجة عجفاء . . اغرق في ضجيج الكلمات وطنينها . . أنغمر في مستنقع الشيء الذي ينبعث الآن كالعملاق الساحق ، وزعقت في آخر الامر كحيوان جريح - « انكم جميعاً ملفقون حقيرون مزيفون . . مزيفون مزيفون »

التنفيذ

ما عادت لي من رغبة غير ان اتوجه اليه في اليوم التالي لأقابل وجهه واتمعن مصطبراً في الملامح التي ستتكون قبل تنفيذ العمل وبعده . . تصورت انها ستكون ملامح رجل نبي كاذب أو ملامح رجل يتوسل حتى يركع على قدميه . . تصورتها قاسية الى حد الكفر . . تصورتها تطلب الاستغاثة دون مغيث . . كانت قطعة السلاح طي الملابس العتيقة المصففة في الدولاب الخشبي المتهرىء في غرفتي البائسة الحقيرة الكابية الجدران ، تلمستها للمرة العشرين أو الألف لا أدري ، واحسست بقشعريرة باردة كنصل ينزل صاعقاً في خاصرة الانسان وقلبه . . قطعت

الشوارع المؤدية اليه . صخب الشوارع يتحول في اذني هدير طبول جائحة ينفثها قلب المدينة النائمة على الجروح .. زاولت في الساعات التي سبقت العملية كل ضروب النزق وأنا أتذكر الماضي الدافئ المغلف بالحنان .. هيه .. وصلت إليه وكان هو بغيتي في آخر الشوط وليس غيره من ابتغيه يا ايام الماضي الدافئة المغلفة بالحنان ... قطعة السلاح التي سرقتها من ابي في الماضي تستقر في يدي وتتوجه هي بحركة نحوه .. أتمعن فيه طويلاً طويلاً .. كان وجهه ثابتاً لا يزال .. أخذني العجب كيف يمكن للوجه الذي أدانني ان يستمر بهذا الثبات . وعندما ضغطت على الزناد ظل الوجه ثابتاً قاسياً موجهاً الي النظرات باستقامة متحجرة لا تريم .

الرماد فى اللون الازرق

في الشارع ، وامامهما حيث كانا يتجهان اليه بخطواتهما الوئيدة اللينة كان نصب الجندي المجهول يلقي بظله وارفاً عند أقدام السور الذي يحيط بالمسجد ثمة . . كانا يحدقان امامهما بانشغال موصول ، وبلذة منتشية خفية . . وفي اتجاه النصب ظلا يقطعان بقية المسافة بعد أن خلفا وراءهما مئآت الامتار كانا وطآها بتشبث وحضور دائم . كانا يعيشان حضوراً مكثفاً بانبعاث المشاعر التي ظلت دفينة بينهما سنوات . . كان الوقت بعد الظهيرة ، وكانت الازهار التي تفتحت في الربيع قد بدأت تذوي الآن مخلفة أياماً مترعة بالعبير الندي المتبقي من آثار شتاء منصرم ، أشعل سيكارة اخرى وأجج تبغها بأنفاس عميقة متلاحقة . تملكه إلحاح آخر في ان يمارس معها عملية المحاصرة ذاتها وان يلقي فوق رأسها بأسئلته اللجوجة التي ظلت تراوده في استرجاع لذيذ يتحسسه الآن بعمق

وعبادة . . في الماضي لم يستطع أن يقول لها شيئاً ، فقد كانت المسافة بينهما تقف احياناً عند حدود المناقشات والنظرة الباردة اللامبالية . . ولكنه الآن يستطيع أن يرسم لها مقدار الخطوة التي تخطوها على الرصيف حتى ، وهي الآن وفي هذا الحضور المكثف بمشاعرهما الجمة المثارة تسمع منه كل ما يقول دون أن تمد يدها لتوقفه عن قول مايريد كما كانت تفعل معه في الماضي.. الظهيرة هادئة فاترة ، ورائحة الربيع المغادر ترشرش بقايا العطر في جنبات الشارع ، وظلال النصب تبدو لعينيه عن كثب خيمة توحي بالكرم الرافد . وها هي معه تسمع منه ما يقول . في الماضي كانت تتحرز بتمردها المستديم ضده ، وكانت صعبة المراس ، ولكنها الآن تلقي اليه بسمعها متطامنة في هدوء الظهيرة التي خلت من الآخرين . . نقلت خطواتها في ايقاع واحد مع خطواته وابتسمت له ابتسامة صامتة ، وعادت إلى نفسها بينما كانا يقتربان معاً من نصب الجندي المجهول . . دارا حول الساحة وانغمرا في ظل النصب ، واحسا فجأة ببرد مقرور خاطف ولذيذ .

- « هل يعيش وحده الآن ؟ »

- « من . . أتعنيه مرة أخرى ؟ لا يهمني أمره »

- « أما تعلمين عنه شيئاً بعد طلاقك منه ؟ »

- « كلا »

- « هل كان طيباً معك ؟ »

- « قلت لك انه كان طيباً في البداية ، ولكنه تحول إنساناً فظاً لا يحتمل »

وفكر . . لو كان قد تزوجها هل كان بمقدوره عندئذ ان يصبح نفس الرجل الذي طلقها . . كان يومها يحبها ويعشق الغموض الذي تحيط به نفسها في محاولة للدفاع ضد كل محاولة منه لاختراق عالمها يومذاك ، ولكنها الآن معه وبين يديه طيعة ككتلة من العجين ، مصحرة كالفضاء المكشوف .

- « أكنت تتقبلين أحضانه عند ما يحتضنك ؟ »

حركت كتفها اليمنى . دست يدها في جيب التنورة ومطت شفتيها غير مبالية .

- « كرهته في النهاية . . ولم أعد أشتاقه »

عاودته الصورة الناغزة التي ظلت تلح في ذهنه باستمرار ومطاولة وعناد . . أتكون فعلاً لا تحب الرجال ، لماذا إذن ترضى بمصاحبته الآن في مطاوعة واستكانة . .

- « هل تذكرين ما كنتِ تقولينه عن الرجال »

- « ربما نسيت ما قلته بالتفصيل . »

- « كنت تقولين بأحقية المرأة في الزواج بأكثر من رجل

واحد ما دام الرجل يفعل ذلك بحرية »

- « هاه . . . » ورقرقت ضحكتها .

وتذكر مرة أخرى صورة صديقتها في الكلية . تلك التي كانت تضع النظارات السوداء على عينيها تخفية شبقها نحو « كوثر » وتوددها المخيف لها امام طلاب الكلية وعلى مرأى منهم جميعاً . نغزته الصورة القديمة مرقت السيارات على أرض الشارع المؤدي إلى الباب الشرقي ، إذ كانا يتجهان اليه في خطواتهما المتئدة . . رمى عقب السيكارة باصبعه ولاحظ العقب يتدحرج بخفة ويستقر في أسفل الرصيف .

- « نكاد أن نصل إلى النهاية . نهاية مشاورنا يا كوثر »

- « ماذا أقول لك . بعد أن تحدثنا كل هذا المشوار »

- « مرة أخرى . أقول لك دعي كل شيء ، دعي الماضي ولنبدأ من جديد »

- « أتقبل ببقايا امرأة ؟ »

- « اقبل . . ولكن دعي كل شيء وابدأي معي »

- « بقايا امرأة تلملم نفسها لتبدأ شوطاً آخر . . اليس كذلك »

- « مرة اخرى . . اقبل وأعدك بشوط كله رضى وسعادة»

- « اسمع . . يترتب علي أن أعود الى البصرة لأسجل

انفكاكي من المدرسة القديمة واعود بعد ذلك

تسطحت الصورة المأفونة في ذهنه مرة ثانيـــة واحتلت مساحة بانورامية مضخمة وعاد يفكر خلسة فيما سمعه عن «كوثر» وفيما تردده عنها أقاويل يتحدث بها اصدقاؤه القدامى . . امتشق اللحظات من حضوره معها وبسط لتفكيره طريقاً لاحباً الى الحقيقة الموجعة ، أتكون لديها صديقة ثانية في البصرة هذه المرة كما كانت لديها صديقتها في الكلية قبل سنوات . . وهي بهذا القدر من الشطط في معاملة الرجال . كانت صديقتها في الكلية تنضح سماً امامه ، تثيره وتستفز في اعماقه القيء والغثيان ويحسب انها تستغل طيبة كوثر وبراءتها الأولى ولم يكن يستطيع تصور الامر كله . . حتى تزوجت كوثر بعد ذاك وانسحبت من عالمه ككيان ولكنها ظلت صورة عزيزة في قلبه جاهد اللحظة ان يزيح الصورة الراهنة عن ذهنه المكدود حدّ ق في وجهها متأملا وحاول ان يصل إلى منابع البراءة الأولى ولكن حالة من الضيق تملكته إذ بدا له وجهها طبيعياً مكتسياً بقساوة انثوية تحتجز طريق الود الذي انسرب منه قبل ساعات ليلتقي معهـا بعد سنوات الجدب هذا اللقاء العجيب . . .

ـ « أتعودين الى البصرة لأنجاز عملية الانفكاك من هناك فقط . . ؟ »

- «ماذا يضيرك . . سأودع ايضا صديقة عزيزة علي هناك كنا معاً في القسم الداخلي . ثم اعود »

حدق فيها بتمعن . . فاض به احساس بالعذاب . توجه اليها بكل ما فيه من شوق الماضي إذ يندفق الآن . ولكنه ارتد إلى نفسه واكتفى بصمته هذه المرة ظلت هي هادئة معه بينما ارتفعت لجلجة الابواق التي ترسلها السيارات المزدحمة في ساحة التحرير.

«» «» «»

احتضنك يا أمي . . أللم جسدي الصغير المرتعش الخائف في حضنك واعتكف فيه مثل جرو صغير يتلمس مواضع الأمن.. تطالعني وأنا صغير ندبة الأيام القاهرة على وجهك الشاب الذي بدأ يفقد رواءه ونضارته . . وجهك ينضح دوماً بعلائم التفكير وأنت تتخللين بأصابعك شعري المجعد المنكوش كصبي مهمل . . مات زوجك الذي هو أبي وما فهمت يومئذ انك كنت شابة حينما مات وخلفني لك وحيداً وحيداً . . ما عرفت غيرك وانا صغير غرير . اعتبرتك بتصور الطفل انك ملكي الخاص وعبدتك في عقلي الصغير كما يتعبد الرجال شيئاً مقدساً غالياً ما سمحت لأحد ان ينازعني فيك ، وما فهمت يومئذ كيف يتوقد السعير في قلبك بعد أن مات زوجك السيء الحظ بسبب ادمانه على العرق . . كنت لي عالمي وحدودي ومملكتي وتفكيري وآفاق دنياي وانا

صغير . عزلتك عن الوجود كما تعزل العنكبوت فريستها في شبكة الخيوط الرقيقة . . وعاندت فيك الايام والزمن واحتجزتك لنفسي جاعلا حضنك مهجعي ومأواي وانه تتخللين بأصابعك شعري في ساعات التفكير التي تستغرقك . وعند ما نشأت وكبرت سمعت حكاية العشق للأمهات وحزنت كثيراً لأجلك . . لن انسى الأيام تلك ، وسنوات الاحتضان الدافىء ووجهك تنداح عليه دوائر الهم كبيرة كبيرة تمردت علي بعدئذ يا أم . . ولم اعرف دوافع التمرد ضدي عندما كنت صغيراً مثل جروٍ احمق غير اني اذكر ملامحها تلك المرأة التي بدأت تتردد على بيتنا المعزول . . قلت لي انها صديقة للعائلة كانت تتردد في الماضي قبل ان اولد ثم تقطعت بينها وبين العائلة روابط الاتصال وها هي تعود . . ركبني الخوف الغريزي منها وحسبتها عدواً ينازعني مملكتي الخاصة . . استرضتني المرأة المجهولة الغريبة بالحلوى وبكلمات تسيل حناناً . . كانت جيوشي الصغيرة التي امتشق لواءها تندحر امام المرأة الدخيلة وانت ساكنة صامتة حزينة يا ام تنتظرين اشياء اخرى تؤججها فيك لحظات السعير في قلبك . . توثق بينكما الود وما عدت احتل في عالمك سوى مكان صغير . . حقدت عليك من بعد . . وعند ما رأيتكما ذات مرة وانتما تتعانقان محترقتين في لهيب اللهاث في غرفة

مغلقة منزوية ، ركضت كالمجنون وانبطحت على ارضية الحوش وبكيت بحرقة بحرقة يا أم . . وتمرغت فوق الارض الصلبة وانا أرفس كما ترفس الذبيحة وقت الذبح يا أم . .

ودعها في موقف السيارات الذاهبة الى الجنوب . . حمل معها حقيبتها الكبيرة وأجلسها على مقعد في السيارة ، وظل واقفاً في المحطة يرقبها من خلال زجاج النافذة ، ابتسمت له دون أن تحرك شفتيها ولمح معالم حزن حائر . . كان يهجس خوفاً من انها ستفلت منه رغم انها وعدته بالعودة الى بغداد لتباشر في وظيفتها الجديدة . دار حول السيارة وكلمها من النافذة المفتوحة - « كوثر . . سأنتظرك . . عديني بذلك . . اتركي ما علق في حياتك في الماضي . . أتعدينني ؟ »

ظلت تحدق فيه وهزت رأسها بعذوبة ، وبان فى حدقتي العين ذلك الأحمرار الممتزج بدمع لا يبين . . أحقاً تشدها روابط لعينة بصديقة أخرى في البصرة . ظل يعامل أفكاره بتأجج يلهبه إحساس كالمرض . .

- « أتعدينني يا كوثر . ؟ »

- « أعدك . . »

تحركت السيارة واختفت عن نظره ، ولبث ثمة وحده ثم تحرك بتثاقل . .

كانت حياتها قائمة على خليط من الفهم والتبني لأشياء لا تلبث ان تكرهها. هي تدرك ذلك حق الإدراك . لعنت حياتها وأفكارها وكل ما فكرت به في الماضي وصبت غضبها الخفي على كل ما جرى لها منذ شبت مراهقة حتى اليوم .. فعلاً كانت تؤمن يوماً ما بحق المرأة فى ان تفعل ما تشاء وان تتزوج باكثر من رجل كما ذكرّها فى مشوار أمس هذا الزميل القديم . . . والنتيجة . ؟ إنها الآن لا تقدر ان تفرز الأشياء فى مكانها الصحيح ، كما انها اليوم أمرأة مطلقة ، معلقة على هامش من العلاقات المحرمة مع صديقتها هناك . . السيارة تنهب بها الارض وفيها مسافرون مضجرون ، تجولت فى وجوههم باحثة عن سلوى ، حولت عينيها الى المناظر التي تمر بها السيارة خاطفة كسهم لا يرد . . فكرت بـــه ، إنـه زميلها القديم . . صديقها الأول ، رجل له اكثر من خصيصة ملفتة للنظر ، ولكنه يعاني من شيء خفي يجعله أمامها خاوياً من معنى تبحث عنه ولا تجده . . زوجها دفنته فى ركن النسيان واحتقرت أيامها معه . . صديقتها فى البصرة تحرقها فى أتون التجارب الشبقة حين تندفع معها كطائشة ظمآنة . . ارتضت العلاقة بها واحتقرت زوجها الذي طلقها بعد اشتجار المشاكل التي لا تحل . . أحست بكآبة إذ عادت تفكر فى الرجل الثاني الذي ودعها فى محطة السيارات ، أتستطيع حقاً

ان تعده وان تفي بالوعد . . طفحت الدموع في عينيها بينما ارتجت السيارة ارتجاجاً عنيفاً . . غرقت في لون السماء الصافي الزرقة وعادت الكآبة تضيق عليها حدود التفكير . كانت السيارة تمضي كعاصفة متطوحة صوب الجنوب والمسافرون الآخرون يلغطون من حولها بحديث تافه . . تاقت نفسها الى رائحة المطهر الذي يعبق في جنبات مستشفى قذر ودعت فيه أباها آخر مرة . . وبدأت تتصور كيف يمكن ان يكون النقاء . . آه تصورت نفسها نقية مثل الأطفال وإنها تتخلص من أدران وحشية الظل وتصفو كروح رضية آمنة . . ظلت تتسرب كروح شفافة في تصور الأشياء البعيدة الحلوة التي كثيراً ما راودتها دون أن تطالها أبداً . . وأحست إنها تغيب تغيب . . أرادت أن تفهم رأساً ودون أي تعقيد لماذا طغت هكذا على الدوام ، غير إنها وجدت يدها تنشمر بقوة ودون أن تفقه شيئاً أبصرت لأول مرة لطخة من الدم حمراء قانية . . أرخت رأسها ثم حاولت أن ترفع عينيها . أبصرت زرقة السماء تحتجب رويداً وتغيب في ضباب داكن . . جاهدت ان تفهم ما يجري ، غير إنها غابت في عالم صعدت إليه بخطو متعثر مبقع بالدم . . إرتمت فوق حقيبتها الكبيرة حيث طوحت بها الحركة المفاجئة القوية وانبطحت فوقها وسكنت مثل إسطوانة توقفت عن الدوران إلى الأبد .

ممر الى رمال البلور

أقعى أخيراً على حافة الرصيف الاسمنتية وتظلل بالفيء الذي تلقيه مظلة مصلحة الركاب ، حيث كان الظل اللافح يمتد بضعة أقدام من مكانه حيث رمى بنفسه مثقلاً بالتعب وبآلام ظهره التي عادت تقصف فيه وتوجعه . . شم الهواء الساخن الذي يدور حوله ويتصاعد كاللهيب في المكان كله ، فوق الارصفة والشوارع التي لفها كالمخبول منذ يومين . . شم الهواء واستروحه بعمق وأطلق نفساً من صدره ، خيل إليه انه أزاح به جبلاً من الغم . . آه يا مدينة التيه ماذا أفعل بعد الآن . . كان الوقت في الظهيرة وقد ظل لهيب الشمس يشوي الارصفة وقار الشوارع بسياط تموز الكاوية وهو يبحث عنه ويبحث عنه دون ان ينال مبتغاه . . حرك رأسه مثل بندول الساعة كأنه ينوح هذه المرة نواحاً يتجذر تدريجياً كالسرطان في نخاع عظامه ،

سحب قدمه اليسرى وتأوه واطلق مرة اخرى تنهيدة حرى ثم اسبل عينيه وعبر بهما المسافة التى تمتد بين موضعه حيث اقعى وبين الشوارع المتفرعة عن ساحة باب المعظم وتخيل المدينة برقتها تزدرده في لؤم وشراهة وجوع . . لم يبق لديه بعد الساعة من مبتغى بعد ان لف الاماكن كلها يبحث عنه ، وحينما فكر بسيكارة يشعلها اللحظة ويقتات على دخانها قرر بشكل حاسم ان يعود الى « النجف » ويدع الامر كله دون ان يبالي بما جرى له في المدينة . . جر نفساً من السيكارة واطلقه في تلذذ . . تخدرت بعض اوصاله وشعر بدوخة خفيفة . . حاذته قدما مفتش المصلحة في منطقة الوقوف ، رفع إليه عينيه وغطاهما بيده ليتقي عموداً من الشمس كان يتسرب نافذاً كالسهم من ثقب مدور في مظلة المصلحة . . ظل المفتش يتسكع حوله ويدور . . سأله من فوق رأسه - « هل تشعر بشيء . ؟ »

ابتسم في وجهه وشعر نحوه بألفة - « لا . . لست مريضاً . . »

سأله مرة اخرى مرتاباً - « ولكنك تجلس على الرصيف كما لو انك مصاب بالصفرة . . حاذر ، فقد تأتي سيارة المصلحة وتسحق قدميك عند حافة الرصيف »

- « لا . . لست مريضاً . . لكنما انا ابحث عنه منذ يومين دون جدوى »

- « عمن تبحث . ؟ »

- « عن محمد الدويهي . . هل تعرفه ؟ »

- « لا . . لست اعرفه . . اين يعمل هذا الدويهي ؟ »

- « لا ادري اين يعمل . لو كنت اعلم لاهتديت اليه »

- « هل انت غريب عن هذا المكان ؟ »

- « انا من النجف . . وجئت منذ يومين لالتقي به . . هو دعاني الى ذلك لالتقي به ولكنني لا اعرف اين هو »

- « ألا تعرف اناساً يعرفون مكانه ؟ »

- « لست اعرف احداً هنا . . انا لا اعرف واحداً من الناس هنا يمكن ان يعرفه بالتالي »

- « انا شخصياً لم اسمع به »

- « كلهم قالوا لي ذلك ياعم . وانا لا اعرف واحداً يستطيع ان يدلني عليه . . هيه . . أأستطيع من هنا ان اعود الى موقف السيارات الذاهبة الى النجف ؟ »

- « ليس من هذا المكان . . اذهب الى الرصيف المقابل وخذ المصلحة رقم ٢٠ واهبط في منطقة علاوي الحلة »

رمى بقية السيكارة الخابية ولملم صايته وسوى عقالـه فوق الكوفية الرمـادية التى تغطي رأسه وعبر الشارع واتجه نحو المصلحة رقم ٢٠ . . ستون عاماً يحملها على كتفيه المنهكتين

كالثمن الباهظ وظهره يتقصف من آلامه المبرحة ، وقدماه يسري فيهما الانين المكتوم . . هو الذي رمى بنفسه في بحر المدينة التيه دون ان يتيقن من المسألة برمتها . . فبعد ان استلم الرسالة من « محمد الدويهي » قبل ايام قرأها له ولده « قاسم » وعرف مضمونها جيداً . كانت الرسالة تقول له ان يأتي الى بغداد ليستلم بقية المبلغ وان محمد الدويهي لن يؤجل الدفع بعد الآن ، وإذا كان قد تأخر في دفع بقية المبلغ القائم على ذمته فلأن ظروفاً طارئة واجهت محمد الدويهي جعلته يؤخر دفع الباقي ، كما ان محمد الدويهي سينتظره في بغداد ليسلمه مبلغ الخمسين ديناراً الباقية ولن ينقص منه فلساً واحداً بعد ان طالت مدة التأخير . . وفي النهاية عزم على السفر وتوكل على الله واستمطر بركات الامام واخذ السيارة نحو المدينة التي آثر ألا يراها الا مرتين او ثلاث مرات طيلة حياته التعبي . . كل حياته امضاها في مدينة الامام لا يبرحها ابداً . . هي مستقره وموطن امنه ومأواه . كان منذ البداية يكره السفر وكان في الماضي قد اقسم ألاّ يبرح مدينة الامام ، ففي المرات القليلة التي ذهب فيها الى بغداد لم ير غير الوجوه التي سرعان ما تأتيه الى النجف محمولة في موكب التوديع الحزين ومغلفة بالقماشة البيضاء لتطويها رمال الوادي الصافية الذهبية كالعسجد ، هناك يزاول عمله بهمة وصمت

وسط قبور « الوادي » الممتد كالبحر عند اقدام الحضرة المقدسة حيث تشمخ مئذنتا الامام وقبته الذهبية امام عينيه حينما يبدأ بالعمل ويبني شواهد الموتى المدفونين في بطن الوادي ذي الرمال الصافية كالبلور . . منذ البدء زاول المهنة وراثة عن ابيه ، يبني للموتى شواهد قبورهم ، يودعهم بعدئذ للصمت الابدي الذي يرين ابداً ابداً فوق فضاء الوادي وخلل ذراته التي تحوم فوق الشواهد مثل طيور خفيـــة متناهية في الصغر تدف باجنحتها حانية على آلاف من الشواهد الجاثمة في وقار الموت محتضنة اجسادهم ، هؤلاء النـاس الذين يكابرونه ويختلفون امام عينيه الآن ويتشابهون في صمتهم المتطـامن غـداً . . هو الـذي يعرف الحقيقة جيداً . . يعرفها كما يعرف اليقين الذي لا يتزحزح في رأسه ، هناك ، حينما يبدأ بالعمل في صمت متحد مـــع صمت الوادي ، يضع حجارة فوق حجارة حتى يعلو الشاهد ويعلن عن اسم الميت وهويته وحتى تتشابه الشواهد من بعد في عينيه فلا يغدو الناس كما يراهم في حيواتهم الآن وكما يكابرون امامه عندما يطرح عليهم سؤاله المضني عن محمد الدويهي . .

وعندما توفي ابن محمد الدويهي جاءوا به الى النجف وكان موكب الجنازة طويلاً ومهيباً . . سمع الكثير عن محمد الدويهي وعن غناه واملاكه . لم يره من قبل ولم يره حتى في جنازة ابنه . .

قالوا عنه إنه رجل هيبة ومنظر ، وانه لا يظهر بين الناس الا حينما يحسن اليهم بأمواله ، وان الكثير منهم فى حقيقة الامر لم يره رأي العين ، انما كانوا يسمعون عنه فقط ، حتى عدّ صورة نادرة لا يمكن ان تنالها عين انسان الا بالجهد والمشقة . . وقد كلفه من كلفه نيابة عن محمد الدويهي ببناء قبر ضخم يليق بابن محمد الدويهي فى وادي النجف بحيث ترتفع فوق مهجع الابن قبة مغطاة بالقاشاني الازرق تتراءى للأعين من مسافات بعيدة ، وليستدل الناس الذين يسمعون عن الدويهي ولا يرونه على قبر ولده وهم يتوجهون اليه من مسافات بعيدة . . وهكذا بدأ العمل فى بناء القبر ذي القبة الزرقاء . استلم الجزء الاكبر من تكاليف البناء وبقي مبلغ الخمسين ديناراً . طالت مدة التأجيل حتى وردته رسالة محمد الدويهي التى قرأها له ولده قاسم .

الاسطة ابو قاسم المحترم

نرجو منك ان تأتي الينا فى بغداد لتستلم بقية المبلغ المترتب علينا ، فقد طال التأجيل على ذمة ظروف صعبة اصابتنا ولكننا لن نؤجله بعد اليوم وما عليك الا ان تأتي لتأخذ حقك طيباً حلالاً والسلام .

التوقيع

محمد الدويهي

حتى كلمات الرسالة كانت حلوة وقد سافر الى بغداد بالفعل . . يومان وهو يبحث عن الرجل . كل الناس لايعرفون من يكون محمد الدويهي وكلهم يعرض حينما يطرح السؤال ملحفاً - فيما اشبه بالضجر والسأم والجفاء كأنهم في المدينة التيه يعانون مرضاً في اعينهم ووجوههم . وكلهم سألهم نفس السؤال - « ياعم .. ألا تعرف رجلاً طيباً محسناً اسمه محمد الدويهي ؟ »

كلهم اجابوه - « لا . . لست اعرف احداً بهذا الاسم »

- « ولكنه هنا وقد ارسل الي رسالة بأن آتي اليه »

- « ولكن المدينة واسعة ايها الرجل . . كيف اعلم بمكانه »

يصيبه الحزن كلما لفحته اجوبتهم الجافية الحادة وكلما لفحه الحر وهو يلف ماشياً كل مشارف الطرقات وشوارع المدينة القائمة هنا كحيوان خرافي . . اين يكون اذن محمد الدويهي إن لم يكن فى بغداد . . هو لم يره ابداً ولكنه سمع باسمه وبنى لولده قبة زرقاء وبقي المبلغ على ذمته ودعاه بعد ذلك لاستلامه ، ولكن المدينة واسعة في عينيه . تسربلها نفس الرائحة التي اعتاد عليها وألفها وهو يبني الشواهد الحجرية في وادي النجف . . رائحة النهاية واللاشيء ، غير ان الناس هنا لايتشممون الرائحة ابداً ابداً . . قال لنفسه انهم يختلفون هنا ويتشابهون هناك حينما يبني لهم الشواهد ، وأياً منهم لن يعرف محمد الدويهي ولن

يعرفه هو ايضاً ، ولن يستطيع ان يصل اليه . ومن هو الذي يقدر على الوصول الى الدويهي رغم انه قريب منه وحروف رسالته ما تزال تتقافز امام عينيه وهو يتابعها مع ولده قاسم .. اكيد .. انه يعيش بينهم وله نفس رائحتهم ، ولكن الناس لا يرونه بل يعيشون فى ظل اسمه حينما يظهر احياناً ليوزع حسنات مما يملك ثم يختفي كما اختفى عنه وكما غاب كأن لم يخلق رجل بهذا الاسم .

احتواه مقعد السيارة الذاهبة الى النجف فى منطقة علاوي الحلة . ظلت الرائحة التي تتصاعد من انحاء المدينة كالبخور تتجمع فى منخريه .. ظل يحدق في الناس من خلال زجاج السيارة الواقفة ، رآهم يتوجهون متنافرين كقطبي المغناطيس . رآهم من بعد يتصادمون بعنف وعنت . تصاعد المنظر في حدقتيه حتى لفه عالم يشبه الثبور .. حلم بصمت الوادي الممتد امام الحضرة المقدسة واحس بفرحة غالبة وحرقة لذيذة كالحنين الى شيء محبوب وابتسم فى اعماقه بحزن ، حتى سمع صوت السيارة وهي تقرقر ايذاناً بالسفر وتدوي معلنة لحظة التحرك .. انصفق باب السيارة بقوة - « طاق .... » تكوم على نفسه منسحباً الى افكاره المتواثبة . أحس بان ثمراً مرصوفاً من حجارة الذهب ورمال البلور يجذبه فيما يشبه العناق والاحتضان .. أسبل جفنيه وابتسم مع نفسه مرة اخرى .

القرد والببغاء

صوت خليل فاهم

تنفذ أشعة الشمس من خلل ستائرك البالية التي مضى عليها زمان طويل منذ وضعت في مكانها . وها أنت تحرك جسدك الضئيل من تحت الغطاء وتشم رائحة نومك في الليل الشتائي الثقيل ، وتتحرك فعلاً وتحس أنت بالحركة تدب في جسمك وتعجب مرة اخرى ككل الصباحات المنصرمة كيف يمكن لمثلك ان يتحرك فعلاً وان يحس ويفكر ، بعد أن بدأ هذا الشعور المهول يستولي عليك كفاتح قاهر يقتحم عليك الاسوار التى أقمتها حول قلعتك الحصينة منذ سنوات . . الشعور بأنك أصبحت قرداً كالقرود ، لا تختلف عنها في شيء . . تتحسس فى جسدك الخائر الصغير لسعات الشعر الخشن الذي

يغطي اجسام القرود ، وتمتد يداك واطرافك القصيرة فى حذر وتتخيل نفسك متسلقاً جذوع الشجر او زاحفاً على الارض تهمهم مع نفسك كالقرود . . هكذا انت يا خليل فاهم . . طعنت حتى الاعماق وتحولت قرداً لا غير . .

أطل عليك وجه الخادم الجهم مرة اخرى كأي صباح . وتوقعت منه يقوم بنفس الحركات التى يؤديها امامك كل يوم وسمعت بالضبط عبارته الجافة التى تنزل في دماغك مثل نصل بارد - « استاذ . . هيا انهض . . » والعجيب انك غدوت تطيعه وتخاف منه وترهبه . . يطالعك وجهه في صورته المتغضنة اليابسة ، ويوجه اليك نظراته الجامدة فتنكمش في فراشك مثل قرد يواجه لطمة من مدربه ، وترفع عينيك اليه وفيهما من الذلة شيء كثير ، وتتحرك عندئذ يداك واطرافك كما لو أنك قرد حقيقي وتزحف ببطء سالخاً جسمك الضئيل من الفراش الذي يشهد دفؤه على نزيز شهواتك المحرومة واعماقك المظلمة التي لا تعرف لها قرار . . وتفعل نفس الاشياء التى لعبتها في الماضي وانتهيت من روائها إلى ما يشبه الموت . . ليس في الاشياء التي تفعلها إلا ما يوحي بالموت نفسه ، ويقذف لسانك نفس الكلمات التى يوجهها الى الخادم العجوز - « هل الفطور جاهز . ؟ » ولا تسمع منه شيئاً بل تخطف عيناك هزة رأسه اللعين ، ثم تمضي

كالمنساق إلى ساحة الاعدام - إلى القفص الذي حبست فيه ببغاءك النادرة الذكية . . أنت تذكر دوماً متى وكيف أهديت اليك الببغاء في عصر قوتك الذهبي عندما كنت السيد الآمر المطاع .. المدير العام السابق الذي لا يرد له أمر . . كانت الهدايا كثيرة ، عج بها بيتك وناءت بها زوايا دارك يا خليل فاهم . . وكانت الببغاء التي عاشت معك الى هذا اليوم هدية من الخارج . . من الاسياد . . تتكلم وتنطق وتسخر وتسب وتشتم وتفعل السحر وكأنها طير جُبل من سحر آثم .

في كل يوم تفعل نفس الشيء الذي فعلته بالامس . . تقف ازاء القفص وتتكشف اسنانك عن ابتسامة تنز صديداً يملؤك حتى الاختناق ، ويولد في عينيك الصغيرتين الكليلتين مثل عيني الببغاء الذكية - يولد حقد له رائحة حارقة تشمها في جسدك وتنضح منه حتى يرتعش مثل ذبالة حقيرة . وينوس جسدك عندئذ كسكير دائخ ، وتظل هكذا دقائق تتطلع في عيني الببغاء حتى تحس انك تندمج معها في منظور واحد ، وتشعر انك تدخل في عينيها الجامدتين وتبحلق بهما في الاشياء وتستهويك الرعشة المتشفية وتكز على أسنانك ، حتى تأتي اللحظة المباركة من الزمن الملعون حينما تفهمك الببغاء مثل شيطان يركبة السحر. تهمهم لها من بين اسنانك المرتعشة - « هيه . . قوليها.»

وتأتي اللحظة المباركة وينزل صوت الببغاء فى حناياك مثل مثل ماء بارد مثلج ويمتلىء البيت بالصوت الفوضوي الآثم - « سحاقية . . سافلة . . »

وتبتسم ابتسامتك الميتة ويفح صوتك ملحاً - « هيه . . » - « سحاقية . . سافلة . . »

وتنتفض من الفرح الذي يلفك كالطفل - « هيه . . قوليها . . »

- « سحاقية . . سافلة . . »

وتنمو قهقهتك من مستنقعك المليء بالروائح الكريهة - « ها ها ها . . قوليها . . قوليها . . »

- « سحاقية . . سافلة . . »

وتعلو القهقهة حتى تبدو يا خليل فاهم معتوهاً يبحث عن اللاشيء ويطلق صرخات قهقهته في القاعات الخاوية التي يرن فيها الصدى القاحل - « قوليها . . فانني أسكر . . »

- « سحاقية . . سافلة . . »

وتنفجر كما ينفجر عواء كلب في قرية تشكو الجوع ، وتستريح عيناك الجاحظتان وتستسلمان فيما يشبه الحذر وتظلان معلقتين بعيني الببغاء وكأنكما تعيشان معاً في قفص واحد وقد تلبستما بنفس الاهاب وعشتما زمن الموت المكفن بالمزوجة . .

هل استرحت يا خليل فاهم . . الدموع تملؤ عينيك . . تبكي وتبكي وتبكي كامرأة ضاجعها الفاتحون . .

أصوات الآخرين

ان لغتنا غير لغته . . واغانينا ليست أغانيه . . وافكارنا لا تتصل بأفكاره ، فهو بعيد عنا مثل قربه الشديد منا كما اننا نتحرك بكل حيواتنا امامه وحوله ولكنه لن يبصرنا في يوم من الايام ، غير اننا نبصره وننفذ بحدقاتنا الى نخاع عظمه ، ومع ذلك يظل هو ذلك القميء المكابر المتعالي وكأن الدنيا خلقت كلها من أجله . . كان في الماضي متعجرفاً . . هذا صحيح . . وحاول أن يبقي صورته في اذهاننا على أنه مخلوق عظيم رغم قمائته ولكنه واجه النهاية بكل بشاعتها واستسلم كما تستسلم القرود . ثم بدأ يحيط نفسه بالغموض العجيب ويحنط بيته برائحة السحر الاسود . . إن اصواتاً غريبة ورهيبة نسمعها دائما تصلصل في آذاننا من جرّاه . . هذا الوحش الضئيل . . كما أن لبيته رائحة الموت الصفراء . . ودائما يسحب انظارنا الى أركان البيت وما يجري فيه من أسرار وسط الوحدة والصمت إذ يعيش كسكم مهمل هو وببغاؤه وخادمه ، وابداً ابداً

تنبعث رائحة الموت من الداخل ناشرة انفاسه وتهوياته . . ورغم ذلك يبقى في تصورنا صرصاراً بليداً تبوأ فى يوم من الايام مناصب لا يستحقها ثم سحقته يد" لا تطالها فى القوة يد" اخرى . . هل تريدون ان نقول لكم شيئاً آخر عنه . . اسمعوا اذن . . لقد احتقرته زوجته فى النهاية ، وعندما هوى كنجم ضال وذهب مثل حجر اصم الى الحضيض اكتشف فجأة ان زوجته كانت محظية للسلطان وانها كانت بنفس الوقت تكرهه وتحتقره حتى الموت ، وانها كانت ترفض ان تضاجعه متعاملة معه كقواد . وعندما كان فى قمة امتلائه نفوذاً وكبرياء وسطوة ، كانت زوجته محظية للسلطان شهية ودسمة وحلوة . . وبعدما اصبح كومة نفايات وسقط عهده ، راحت تمارس السحاق مع النساء الاخريات . . واخيراً نقول لكم . . انه وجدها يوماً متلبسة بالمشهد نفسه وقد ذاب جسد انثوي فى جسد انثوي آخر وعندما أراد ان تقدم اليه الحساب بصقت فى وجهه وذهبت بعيداً مخلفة اياه فى وحدته المطلسمة بشارات السحر والببغاء والخادم الغريب كغرابة سيده . . . .

صوت الخادم

أنا خادمه حقاً . . اسمي « حسين الهذال » . . حاولت

فى الماضي ان احبه فكان متعجرفاً رغم قباءته فكيف احبه اليوم بعد ان بدأ يتحول تدريجياً الى خرقة بالية يفوح منها العفن . . حاولت فى اوقات يأسي ان اتركه الى اللاعودة ، ولكنني كنت افكر بالجوع الذي سأغرق فيه حتى اموت مثل جيفة نتنة بعد ان بلغت من العمر حداً ينهكني ويفريني حتى العظم . وقد اتجهت صباح هذا اليوم الى غرفته لأوقظه . . أصبح ينكمش لمرآي مثل كرة مثقوبة فارغة من الهواء لمجرد النظرة الخالية من اي مشروع ، وكنت اعجب لماذا يستسلم لي بمثل الطواعية التي تغلف حركاته المستوفزة . . وقد تكون فكرة القتل قد ساورتني فترة من الزمن ، ولكن القتل نفسه ظل فكره مجردة عن يقين التنفيذ ، وربما فكرت مراراً انه سيكتب لي فى وصيته اخيراً بجزء من قيمة البيت الذي يقطنه ، فلم اكن اعرف ان له اقارب يستورثونه فى حالة موته ، ولم يكن له ولد من زوجته التى طلقته وذهبت الى مكان مجهول . . لقد جعلني شاهده . . شاهد" على عصوره المنسحقة تحت اقدام الزمن الجبار وجعلني جزء من حياته الملآى بالاسرار والاثم . . وها اننا نعيش الآن معاً فى مرتبة واحدة . . السيد والخادم . . ولكنني فقدت معه كل صلتي بالاشياء وغدوت عدماً مثله . . اللعنة عليه . . اللعنة عليه . . اللعنة عليه . .

عندما اتجهت الى غرفته كان الهدوء يفرش كفه في ثقل خانق حتى ان روحي تقصفت مثل جناح مكسور يسبح بالدم . . كان الهـدوء رهيباً واحسست ان لونـاً اصفر كالقيء يطفح حتى يملأ ارجاء الغرفة ، وعندما حركته قلت له ـ « استاذ . . هيا انهض . . » ولكنه لم يتحرك ، تأملته طويلاً ثـم هززت جسده الصغير فكان يطاوعني في استسلام فظ . . حركته مراراً وبقيت اهزه حتى كلت يدي وعندئذ شهقت . .

كان صوتي يفح في الصالة وقد واجهتني عينا الببغاء ـ « إنه ميت . . إنه ميت . . »

وعندما رفعت سماعة التلفون لأخبر واحداً من النـاس ، تذكرت انه لا يملك أحداً منهم . . وفي المساء جاء رهط من القوم لا اعرفهم ولكنهم ادعوا بأنهم اقاربه وفتشوا كل ناحية في الدار فلم يعثروا على بغيتهم التي جاءوا من اجلها ، وبعد ساعة حملوه مثل خرقة أكلها الغبار وذهبوا به الى مكان بعيد .

انطلقت بها سيارة الاطفال ذات اللون الازرق ، وسمعته يرد على تحيتها بصوته العميق الرزين - « صباح الخير ست ساهرة . . »

اتخذت مقعدها المعهود قريباً منه ، ونفخت في يديها وفركتهما وشعرت بدفء لذيذ ، ونقلت عينيها فى زوايا السيارة ، كانت المقاعد شاغرة وبلا ضجة وبدون حركة . تخيلت وجوه الاطفال العذبة واحست بفرحة خفية اذ ستلتقي بهم مرة اخرى هذا الصباح . . عادت تفرك يديها وتنفخ فيهما ، وخيل اليها انهما متثلجتان جامدتان من برد الصباح . . رفعت عينيها الى « احمد » سائق السيارة ، كانا وحدهما في هذه اللحظة الفريدة من الزمن ، بدون ضجيج الاطفال وصخبهم . . وانهما ليبدآن جولة الصباح وحدهما هكذا ، ثم يتقاطر الاطفال مثل قطرة قطرة

حتى يملأون السيارة ويعلو الصخب .

تذكرت « ساهرة » الدقائق التي تقضت وهي تنتظر وصول السيارة لتنقلها وتنقل الاطفال الى الروضة ، كانت قد نهضت من النوم مبكرة كعادتها وفتحت النافذة الوحيدة فى غرفتها الصغيرة البسيطة المظهر ، ووجدت الصباح بارداً بارداً وتصورت انها لن تستطيع ان تقاوم البرد بدون ارتداء المعطف الرخيص الذي ابتاعته فى نهاية تشرين الثاني ، وقد شعرت بلذعة البرد القارصة عندما كانت تنتظر في مكانها امام البناية ، ولكنها كانت تشعر بسعادة طاغية وهي تنتظر السيارة كأنها تنتظر موعداً شهياً . ، ذلك انها رغم البرد في ذلك الوقت المبكر من الصباح ظلت تحلم بالدفء فى داخل السيارة عندما تأخذ مجلسها في مقعدها المعهود قريباً من « احمد » ، وقد كان ذلك كله يبعث في روحها موجة عارمة من الفرح الآسر شاعرة أن مناظر الصباح الشهية تملأ عينيها الخضراوين وكأنها تولد فى اعماقها مثل وليد رائع النقاء ، وكانت تتنشق عبير الارض الندية ورائحة الاشجار التي تتسرب اليها من نافذة السيارة وتحلم في ابواب السحر التى تنفتح عن قصر عجيب ينتظرها فيه على السلم الناعم انسان لم تلتق به ولم تعرفه من قبل ولكنها تعرف ملامحه حق المعرفة ، اذ يفتح لها ذراعيه ويتلقفها من خصرها ويصعد

بها درجات السلم ويختصر معها الوجود والزمن في حركة ايقاعية حالمة ، ولا تعود . تشعر بنفسها بين يديه بل تغيب مثل حمامة وادعة ترف وتختلج في مطاوي الفضاء الوسيع ، كانت تتخيله دائماً عميق السمرة وفي عينيه لغز وكآبة وفوق شفتيه شارب كثيف محدد يعطيه صورة فريدة لرجل قوي ولطيف ومحبوب .

رفعت عينيها مرة اخرى وراحت تتملى جانب الوجه الساكن . . وجه . . احمد . . . . انهما الآن وحدهما بدون اطفال ، وبعد قليل ستحمل السيارة اول طفل ولا يعودان وحدهما . . هكذا هو الامر كل صباح . . والاطفال . . يالهم من اطفال رائعين مشاكسين يفيضون براءة وحلاوة ، انهم الآن ينتظرون وصول السيارة لتنقلهم الى الروضة ، ينتظرونها مثل ازهار تترقب الفراشات الملونة ، وقد تجدهم ساهرة يقفقفون من البرد ويرتجفون وتتلون وجوههم بلون الزرقة الممزوجة بالدم . . « لو أستطيع ان ادثرهم جميعاً فى الصباح البارد » لقد كانت تشعر نحوهم شعوراً حاداً بالامومة اذ كانت تتخيل انها ولدتهم جميعاً ، ويبقى الخاطر الجميل ينث في حناياها نعومة للأشياء وحماساً للحياة دافقاً بسيل من المشاعر البهيجة .

رمقت « احمد » مرة اخرى واستغلت الفراغ ، وظلت تحدق في جانب الوجه الهادىء الكريم كأنها تتبتل فى السر حتى

يفيض بها الفضول العجيب . . « احمد » هـذه عادته . . لا يتكلم ، لا يتفوه بحرف الا اذا سألته او حدثته أو دفعته الى الكلام . . كانت تتفحص سكوته وصمته ووجوده المكثف امامها كحقيقة كبرى - في شيء من الاحترام والرهبة والفضول ، وكانت احياناً لا تمالك فيض الافكار فتود لو تتهشم فوق جبهته الصلدة قطع الزجاج لتشرخ الصمت الموحي وتخدش وجه الهدوء المشوب بالكآبة . . اهو يحترمها ام هي الكبرياء ؟ اهو يخشى ان يتبسط معها فى الحديث لأنها « المعلمة » ام انها لاتلفت النظر ؟ زميلاتها فى الروضة من المعلمات والمشرفات يطرين جمالها دوماً ويتحدثن عن جمالها وعينيها الخضراوين . . لماذا لماذا الصمت . .

- « احمد . . لقد تأخرت قليلاً هذا الصباح . . لماذا ؟ »

لم يلتفت اليها السائق . بل ظل يراقب الطريق بعينيه ثم اجاب كمن يصحو - « ذلك صحيح . . معذرة للتأخير »

ابصرت في جانب وجهه صفاء مثقلاً بالتفكير والسهاد ، كان يبدو لعينيها رجلاً قوياً وغامضاً .

- « انني اعتذر . . انت تعلمين متاعب الاولاد . لقد كان طفلي الصغير » وخمنت انه سيكمل .

- « ولكن لماذا اريد ان اصدعك في هذا الصباح . . هل تذكرين طفلي الصغير ، لقد حدثتك عنه »

- « انا اذكر جيداً . . ولماذا انسى . . انني لايمكن ان انسى »

- « لقد كان مريضاً هذا الصباح الى حد مخيف وحرارته عالية » .

- « ياللطفل المسكين » وتألمت بحق . . تذكرت يوم قص عليها القصة باكملها ، وكان ذلك فى احد الصباحات الباردة ايضاً وكانا وحدهما . اختصر لها الحكاية كلها ، الزوجة والفقر والسل الذي ملأ بيته بالموت ، والموت الذي خلف له تركة ثقيلة من البنات والاولاد . ساهرة تتذكر الحكاية جيداً حينما اخبرها قبل ثلاثة اسابيع ، وكان احمد يبدو وقتئذ رائعاً ومتصبراً وهو يتكلم ببطء من وراء المقود وعيناه جلمدتان على الطرقات والشوارع الموشحة بالبرد ، - « انه رجل . » هكذا كانت تردد مع نفسها كلما عاودتها الخواطر الخفية مقترنة بصورته كرجل متصبر .

- « احمد . . ابنتك « هدية » . كم عمرها ! »

- « انها في الثالثة عشرة من عمرها ، ولكنها لو تعلمين لا تفهم شيئاً من امور البيت ، ولذلك فالبيت في فوضى » .

تمتمت ساهرة - « لا بد ان الطفل يرقد الآن هناك مع اخته ؟ »

التفت اليها لاول مرة هـذا الصباح . . ارتعشت ساهرة

قليلاً ربما لنسمة باردة اخترقت نافذة السيارة ، غير انها ظلت تتوغل في احساسها الخفي بكآبة وجهه المشوبة بالصفاء .

- « نعم . . انه هناك ، وقد تركته مريضاً الى حد مخيف »

- « انني اقول . . اقول كان الله في عونك »

- « انني احبه . . احب هذا الطفل فهو يذكرني بامه دوماً »

- « ليرحمها الله . »

- « ويرحم امواتك . . انني اجد نفسي عاجزاً عن رعاية البيت والاولاد »

وابتسم في دماثة ثم هز رأسه . . ارادت ساهرة ان تقول له شيئاً . تمنت ان تذهب الى بيته لتسهر على الطفل وترعاه كما ترعى اطفال الروضة . وان توفر لبناته شيئاً من السعادة كما توفرها احياناً لاطفال الروضة . . لوتستطيع لوتستطيع . . وابتدأ الاطفال يملأون حيز السيارة تباعاً ، واحمد يدير المقود ويغرق في هدوئه ، وتظل الطرقات والشوارع التي تمر بها السيارة الطويلة محملة بالبرد وبرائحة تنفذ في اعماق الروح مخلفة احساساً بالتفرد الحزين . . فكرت ساهره خلال ذلك . .

- « احمد . . لا ادري ماذا كنت اريد ان اقوله لك . . »

- « نعم ست ساهرة . . »

- « كنت اريد ان اقول . . انني . . انني لواستطيع رعاية

الطفل لشعرت بالسعادة . . »

ارتسمت على وجهه معالم حزن طيب فرشتها رغبته الاكيدة في الامتنان ، ولكنه لم يجبها بحرف ، بل راح ينعطف اخيراً بسيارته نحو الشارع المؤدي الى بناية الروضة . . هبطت ساهرة وبدأت ترقب الاطفال وهم يغادرون السيارة ويتراكضون في مرح صوب بناية الروضة ، كان ضجيجهم يملؤها احساساً بوجود عميق يلتصق في اعماقها ، وبسعادة مضاعفة اذ يحدثها السائق حديثه مختلطاً مع اصوات الصغار . . لو تستطيع لو تستطيع ان ترعى صغيره وان تقف بجنب الرجل في محنته ، وتذكرت حياتها كلها منذ البدء وغرفتها القاتمة الجدران ونمط المعيشة في الشقة الحقيرة المؤجرة في البناية الكبيرة وحياتها الوحيدة مع امها الصماء التي فقدت بصرها بسبب الشيخوخة . . الوحدة . . . الوحدة هي التي تقتلها في الامسيات الخالية من اي اشتهاء ، وغرفة الصمت في الشقة هي التي تقتل في نفسها حماسة الصباحات والساعات الجميلة ، ولولا صخب الاطفال في الروضة ولولا الآخرين الذين تأنس اليهم في ساعات النهار لما احتملت قسوة الأيام . .

أمضت ساهرة ذلك النهار وهي تفكر فيما قاله السائق وفيما نفض اليها من همومه وكانت تجد في ذلك تسلية وسلوى .

كان وقت العودة دافئاً والشمس تمد اشعتها في فتور لذيذ . دار « احمد » في نفس الشوارع التي مر بها في الصباح وغادر الاطفال واحداً اثر واحـد . وبقيت ساهرة وحدها على المقعد القريب منه . اتجه السائق بها نحو منطقة الباب الشرقي وشارف مدخل شارع الكفاح .

- « احمد . . »

تلفظت باسمة واحست في صوتها رنيناً عميقاً مرتعشاً .

- « احمد . . انني اشعر بتعب وصداع . . ارى ان ننزل معاً بكل صداقة ونشرب كوبين من الشاي في محل الكيت كات القريب من هنا . ؟ »

ورمقته يبلع ريقه في صعوبة ، وتوقعت ان تسمع اعتذاره ، ولكنه أدار المقود باتجاه « الكيت كات » ، وهبطا معاً بعد ان تلكأ عنها خطوات . مشت هي امامه في خطوات متعثرة وتخيلت الناس ترمقها في فضول واستطلاع . دخـلا « الكيت كات » ، واتجهت الى الطابق العلوي دون ان تلتفت وراءها بينما اتخذ « احمد » مكاناً له فى الطابق الارضي ، وتناولا الشاي الحار على هذه الصورة .

وحينما هبطت على السلم وجدته ينتظرها عند المدخل كأنه رجلهـا الوحيد . ظـلا صامتين بقية الطريق ، وحينما غادرت

مقعدها في السيارة امام البناية التي تقع فيها الشقة لم تعرف كيف تقول له « مع السلامة » ، كانت ناقمة على شيء ما ، وعندما تحركت السيارة الطويلة وخلفتها الى الوراء ادركت تماماً انها لم تقل له - « وداعاً » . ظلت واقفة حتى اختفت السيارة ، ثم بدأت ترقى سلم البناية متجهة نحو شقتها . والتقت في الحجرة بوجه امها الجامد . . مساء كئيب رمادي آخر ، يبدأ مثلما بدأت مساءات كئيبة مرت في عمرها وهي تمضغ الافكار الكابوسية المرعبة . . لم تحاول ان تقول لامها شيئاً فاذا تسمع منها الام وقد اقعدتها الشيخوخة كشجرة هرمة يابسة . . خلعت المعطف ورمته في الدولاب وارتمت على الكرويته ، واخذ الشريط يدور في الخاطر . . انها تشعر نحوه بكل شيء وهي لا تقدر لا تقدر ، لن تنكر أو تغالط ، انه رجل رائع وهي تذكر أول مرة رأته فيها عندما عينوه سائقاً لسيارة الروضة ، كان الخريف ما يزال يبعثر اوراق الشجر ويذروها ، وكان احمد وقتها يشمر عن ساعديه ويبدو الشعر الكثيف على الساعدين الاسمرين ، كان نظيفاً منذ البداية ، نظافته ورجولته وكآبته وهدوءه تأسر لبها وتجعلها تفكر فيه كما لو انه يهبط عليها كالقدر النازل . . انه رجل رجل رجل . . انه رجلها الذي حلمت فيه طويلاً طويلاً . احست بالدموع تجول فى عينيها . . لو تستطيع مساعدته

لو تستطيع ان تمد له يدها بكل عطائها وان تعيش عالمه الصامت النظيف المليء بالمشاكل اذن ستغيب عنها الامسيات الكئيبة وتندثر الهموم . . وكما يتسلل ضوء الفجر الباهث حيياً بـدأت ساهرة تشعر بروعـة عظيمة واغراء جميل يتسللان الى نفسها ، وتنفجر البهجـة المباغتة - « يمه . . يمه . . أوف يمه . . بس لوتعرفين . . لوتعرفين شگد لطيف ومحبوب وابن حلال . . »

واحست ساهرة براحة تتمشى فى حناياها ، وارادت ان تقول اشياء خفية اخرى وتزيحها عن صدرها . ، اصبحت لهـا اسرار حلوة ونجوى وتباريح ، ترددهـا مثلما تتردد الأدعيـة في الليل ، وتعيدها كما تعيد تنويمـــة لطفل . ظلت تعيش دقائق تدري مقدارها وكثافتها وروعتها حتى انهـا كانت تدرك بحماسة وفرح انها تستطيع الآن ان تفرق الزمن وتجمعه . .

- « يمه . . على كل حال . . لازم اگول . . آني احبـه وليش انكر . . احبه اكثر من روحي . واعزه اكثر من معزة عيوني الخضر هذي . . »

ولم تستطع بعد ان تنال راحة اقصى مما نالته من بوحها الخفيض الراجف كالدعـاء ، وكانت امهـا تجلس قرب المدفأة النفطية تتلمس حـاجة ما ولا تسمع غير طنين ابدي ، وساهرة تعيش حلمها وحدها وحدها . .

الفارس والبرج

كان ظله يستطيل مع استطالة الشعاع الفاتر الذي تلقيه شمس الغروب ، حينما وقفت امامه أتطلع اليه خائفاً من ترقب الليل الذي يذكرني باشباح الغابة وشياطينها . قال لي ابي - « لا تخف من الظلمة ، اختبيء في الكوخ وسد عليك المنفذ بلوح الخشب المرمى الى الخلف وضع حجارة كبيرة لصقة . . لا تخف . . »

كنت احس الخوف يغوص في قلبي ويرعشني . تطلعت الى ابي مرة أخرى وكدت استغيث به وارجوه ان يبقى أو أن يصطحبني معه حيث يريد ان يذهب لولا انه رماني بنظرته الثاقبة القوية - « قلت لك لا تخف . . سأعود غداً بعد أن أواجه الشيخ وأطالبه ببقية الحصة . » وسمعته يتمتم مغضباً ، وقبل ان اقول له انني جائع ، كان قد مضى شطر الدرب الترابي المؤدي الى القرية .

بقيت وحدي . . اختبأت في كوخ ابي كما يختبيء الارنب المذعور في حجر صغير داكن ، وكان المكان الممتد بالخضرة إلى مسافة بعيدة حيث ترتفع ثمة اشجار الغابة المجاورة يتحول الى لون مشرب بالدكنة الشفيفة . . هبط الليل وبدأ قلبي يرتجف واهناً كذبالة الفانوس . . « سيأتي » قلت لنفسي أحاورها بخفوت . . « لن ادع الشيخ يأخذ الحصة مني » هكذا قال لي مغضباً وهو يتمتم منكفئاً على زرعه ، سيعود محملاً بما وعدني به . اعرف ابي قوياً شديد البأس ، وحينما ماتت أمي احسست بحزنه على موتها يهده اياماً معدودة ويجعله يحرق لفائفه ويدخن بنهم وصمت في ليالي الوهن الصاخبة بأصوات الحشرات والجنادب الملحاحة ، وكان يتمعن في وجهي الصغير المنكفيء مثل كلب القرية العجوز . ، ثم لم يعد يذكرها من بعد إذ كانت الحقول الخضر تشغل باله وتملأ عينيه . .« سيأتي» قلت لنفسي وانا أتابع صوت الريح في الخارج متخيلاً دبيب الخطوات الخفية آتية من البعيد ، من الغابة التي ترسم تخوم المكان ، وكانت الريح تدور ثم تدور محملة برائحة الزرع ، مهوّمة فوق الكوخ الذي قبعت فيه وكأنها تحمل إلي اخبار ابي الذي ذهب في المساء الملون بلون الغروب الباهت .

لم يعد أبي في الصباح الذي وعدني به ، وكنت قد

انتظرت ساعات مرهقة بآلاف التصورات وانا اقبع في زاوية الكوخ المتفرد . . وانتظرت سواد النهار عله يعود ولكنه لم يعد . . كانت صورته تراودني وهو يتمتم بغضب ، ويده تتخلل بساط القمح الاصفر الممتد حتى النهاية التي تدركها عيناي الكليلتان . . تصورته يشمخ امام الشيخ ويندلع صوته كصوت الرعد الذي ينير ضوؤه جنبات الحقول المنداة في الليالي المكفهرة بالغيم . . انتظرته حتى المساء التالي دون أن يعود . . كنت اقضم زاداً تركه لي واحلم بوجهه مغموراً بالبشر والفرح ، ولكنه لم يعد في النهاية ظلت روحي الصغيرة تتحمل في خوفها المريع طنين الاصوات وهسيس الحقول القصية طوال الليل الساجي الذي توهجت انجمه كعابد أضواه السهر .

وفي الفجر الثاني جاءني الفارس الغريب ممتطياً فرسه الشهباء . . وقف متردداً أول الامر ثم ناداني - « يا ولد . . تعال . . اخرج »

تلصصت عليه من وراء ثقب في اللوح الخشبي الذي اغلقت به منفذ الكوخ . كان رجلاً غير أبي . عليه سمات تعب كبير ورائحة سفر مضن تحمله حتى أدركني في الفجر الذي فرش رؤاه الوليدة فوق الحقل الاصفر . . نفخت فرسه ودقت بقائمتيها الاماميتين الارض المبقعة ببقايا الحطب والاعواد

الصغيرة ، وسمعته مرة أخرى ينادي - « يا ولد . . تعال . . لا تخف . » تذكرت أبي وعاودتني رائحته وقامته وصوته وشذي الحنين اليه ، لعل هذا الغريب جاء من جهته حيث يوجد هو الآن ليأخذني اليه ولأمرغ وجهي في احضانه .. ازحت اللوح الخشبي وخرجت الى الفارس الغريب ، كان ما يزال ممتطياً الفرس الشهباء . وكان وجهه متعباً ورضياً وواعداً بالخير ، تفرس في وجهي قليلا ثم زفر نفساً من صدره وتململ فوق سرج الفرس ، حتى بدأت فرسه نفسها تحرك اقدامها مثيرة طبقة خفيفة من التراب واعواد القش .

قال لي بصوت رضي - « ألم تخف ايها الولد ؟ »

تطلعت اليه ساكناً اتملى وجهه الذي لوحته الشمس ، بينما راح هو يهبط عن صهوة الفرس ماداً يده بحنو الى جلدها الناعم يمسد لها شعرها فتستكين اليه بما يشبه الحب . . لبثت اتطلع اليه يستغرقني التفكير ويشدني الموقف كله ، بينما كانت - من الناحية الاخرى - تهب نسمات باردة ، تنحدر صوب الارض المزروعة مارة بقربي متغلغلة بنعومة في انحاء جسدي المنهك من الجوع والانتظار .

صاح بي هذه المرة كما لو انه يستثير انتباهي - « ألم تخف ايها الصبي ؟ » قلت له وقد تملكتني الحيرة والشداه - « ذهب

ابي قبل يومين ولم يعد . » ضحك بأسىً وقال ـ « اعرف ذلك ايها الصبي . . ولكنك لم تخف وانت وحدك . . أليس كذلك ؟ »

جاش بقلبي حزن داهم ولم اعرف كيف اجيبه هذا الرجل الغريب . . وحينما رفعت عيني اليه تلقاني بنظرة ودودة فاندفعت اقول له ـ « قال لي ابي انه سيعود . . هل تعرفه ؟ »

لبث لحظـــة يفكر وغامت فوق وجهه سحابة غم وتمتم ـ « اعرفه . . اعرفه . . غير انه سيعود فيما بعد ، والآن تعال معي . . »

ودون ان افعل شيئاً كان هو يرفعني بسهولة ويحطني برفق على سرج الفرس بينما استطاع هو ان يرفع جسمه برشاقة ويستوي بعد ذلك خلفي ماسكاً اللجام بتمرس قوي . وشد اللجام فقفزت الفرس بمهارة واستدارت صوب الدرب الذي وطئه ابي آخر مرة ، وبدأت الحقول واعداد الحنطة والمواضع التي اعتدتها وامضيت فيها طفولتي القاسية تنأى عن النظر بينما كانت الفرس تخب بهدوء فوق الطريق الترابي .

سألني بحنو وانفاسه تصدمني من الخلف ـ « لا تخف مني ايها الصبي . سأذهب بك الى ناحية اخرى وستلعب هناك مع ولدي محيسن »

قلت له ـ « هو يعيش في مكان بعيد ؟ »

قال لي بصوته العميق ـ « من تعني . . ولدي محيسن . .

نعم انه يعيش هناك وسنذهب اليه الآن »

سألته بعد ان مرت في رأسي صورة أبي - « وأبي . . لقد قال لي انه سيعود »

صمت الرجل مرة أخرى وتنفس بعمق ولفحتني انفاسه وجاءني صوته مرتعشاً - « ابوك . . نعم سيعود ايها الصبي.. »

وأفرحني ذلك حتى قلت له بسذاجة وفرح - « أهو قال لك؟. »

اجابني بارتعاش - « نعم لقد قال لنا جميعاً ما كان يجب ان نقوله نحن . . اسمع ، لقد كان أبوك شجاعاً . . أليس كذلك ؟ »

قلت له بفرح - « نعم . . انني اعرفه . . اعرف ابي .. كان لا يخاف من الظلام ومن دبيب الجن في ظلام الحقول ونحن نعيش لوحدنا في الكوخ . . وحينما ماتت امي قبل سنوات تركت له بنتاً صغيرة كانت ترضع من ثدي أعجف خرج يبحث عن نساء في المكان يستطعن ارضاعها فلم يعثر على واحدة . . عاد بها إلى الكوخ ورماها في وسطه وهو يحدق فيها صامتاً صابراً بينما كانت الطفلة ترفس جائعة . . كنت انشج لحظة ثذ مرتعباً . اما هو فقد ظل يحدق كصقر محبوس حتى خفت صوت الطفلة ، وفي الفجر حملها ودفنها قريباً من الحقل.. ثم عاد يعمل بصمت . . انا اعرفه . . »

كان الفارس الغريب يستمع إلي ويبتسم بغموض وانشغال.. قال لي - « كان يحب ارضه وزرعه . . ولقد قال ما كان يجب ان نقوله نحن »

سألته - « أقال شيئاً هناك . ؟ »

هدهدني صوته الدافق بالحزن - « هو ذاك ايها الصبي . . كلنا يعرف اباك . . اتعلم . . الرجال جميعاً ، هناك يذكرون اسمه ويهزون رؤوسهم والنساء زغردن له بينما كان هو محمولا الى الخارج وعيناه تسبحان في بحيرة من الرضى »

لذت بالصمت . تخيلت جسد ابي ينداح من فوق الايدي والرؤوس وينتصب في نهاية الطريق مزيحاً كل الاجساد النتنة رافعاً كلتا يديه ناثراً شرر عينيه ، بينما يضحك الاطفال الممزقوا الثياب ويهتف بالهوسات الرجال الآخرون المعروقو الجلد . وتتدافع موجة الذعر بين اولئك الذين حملوا جسد ابي مهطعي الرؤوس وترديهم مواطن الرعب . . وبينما كنت أفكر بذلك ، كان صوته هذا الرجل الغريب يتصاعد خفيضاً خفيضاً ثم يندفق مالئاً المكان الذي نمر به كما تمتلؤ حقول الحنطة التي تركها ابي برائحة الصباح المحملة بأشواق المسافات القصية المجهولة .

العربة والاطفال ومجيد رمانة

كان عيد الاضحى الكبير قد حل منذ الساعات الاولى من الفجر ، وكانت المساجد ممتلئة بالمصلين الذين ذهبوا يؤدون صلاة العيد ويرتلون بعض الآيات القرآنية ، ويرددون تلك النغمة الجليلة المفعمة بالخشوع في صوت جماعي متساوق واحد يتصاعد الى السماء العليا حيث الله وحيث تصمت الملائكة في رهبة ، وفي أثناء ذلك وحينما كان الفجر ينبثق مثل فكرة جميلة في رأس شاعر ، كان « مجيد رمانة » قد قرر نهائياً ان يشتغل في ايام العيد بهمة ، وان يجر عربته الخشبية التي ستزدحم بالاطفال مئآت بل آلاف الامتار وسيعوّل على بقية قوته ولن يكل ولن يشكو وسيجمع مبلغاً كبيراً هذه المرة ، ولن يدع العيد يفوته كما فاته عيد الفطر المنصرم . . في عيد الفطر مات طفله « شهوبي » وقد شغله الموت يومئذ فما سيشغله اليوم في

عيد الاضحى الكبير . ؟ كان قد فكر في المنطقة والمكان الذي سيعمل فيه ويزدحم فيه الاطفال المتحمسون الجذلون في سعادة للعيد . . رسم في مخيلته المسافة التي يجب أن يقطعها بعربته الخشبية الطويلة التي تدور على عجلتين والتي ستغص بجموع الاطفال وحدّد ثمن الركوب في العربة وانتهى من كل شيء وارتاح باله واطمئن . . وهكذا كان « مجيد رمانة » قد قرر نهائياً ان تكون مسافة الركوب ذهاباً فقط بين سينما بغداد وحدائق السكك حيث توجد « حديقة الحيوانات » وحيث يزدحم الناس وترتفع أبواق السيارات وتختلط اصوات الباعة مع الاغاني الريفية وحيث تكثر صناديق البيبسي كولا والحلويات الرخيصة والعنبة الممزوجة بالصمغ والبهارات الحارة . . . الذهاب فقط بعشرة فلوس ، والاياب من حدائق السكك الى سينما بغداد بعشرة فلوس . . ورحمة الله واسعة والرزق من عنده تعالى والقوة لا تزال في العضلات المتعبة المتهرئة وسيجمع مالاً كثيراً . .

كان « مجيد رمانة » يحسب انه سيكون وحده في هذا المكان ولن ينافسه الآخرون من اصحاب العربات الخشبية واكثرهم اصحابه ومعارفه ولكنه رآهم يتقاطرون مثل الدود ، وامتلأت نفسه بالهم والتشاؤم - « وين ما يروح الانسان

يشوف گدامه گطاعين الخبز . . » وحاول أن يطمئن خواطره المهتاجة - « هذا هوّه . . الرزق على الله . . » . ابصر عدداً من العربات الخشبية ممتلئة بالاطفال الذين ارتدوا ملابس ملونة فاقعة وهم يغنون وقد علت وجوههم آثار نوم ما تزال باقية وقد اختلطت مع معالم السعادة الطافحة . .

راح « مجيد رمانة » يجأر بصوته ويدعو الاطفال . كان يرتدي دشداشة خفيفة وقد لفّ حول وسطه حزاماً جلدياً متشققاً ورفع اذيال الدشداشة وربطها بالحزام فبانت ساقاه الممتلئتان بالشعر الكثيف مثل خيوط من الماء الاسود الآسن . وتجمع بعض الاطفال والصبايا من حوله ووجد « مجيد رمانة » من بينهم فتاتين ترتديان ثوبين زرقاوين بلون غامق وفي يد كل منهما جنطة من النايلون وهما تحاولان ان تبدوا كالسيدات الكبيرات ذوات الحشمة . . قال لهم في حماسة وتوسل - « تعالوا تعالو.. كل واحد بعشر فلوس الى حدائق السكك . . » وحدق أحد الاطفال في وجهه ببلادة ، ومد أحدهم يده الى جيبه وتحسسه بحذر ، وصعد قسم منهم دون سؤال ، وجاءت فتاة رفيعة الساقين وفي يدها دف تضرب عليه ، وخمن « مجيد رمانة » انها ستغني أغان شائعة كثيرة وسيسمع وسيطرب وسيمتلأ بهجة وينسى همومه وتعبه وثقل العربة . .

وجر العربة بعد أن غصت بالاطفال وصاح بصوت معصور - « يا الله . . » بينما تكوم الاطفال على ارضية العربة الخشبية وجلست الفتاة الرفيعة الساقين عند زاوية العربة وشرعت تضرب على الدف وراح الاطفال يصفقون على الايقاع . . كان « مجيد رمانة » يجر العربة وعيناه الى الارض . إن ثقلهم كبير ولكنه سيعتاد عليه ولابد ان يجمع كمية من النقود تكفيه لأيام معدودة ، ولن يدع التعب يسيطر على همته حتى ولو اقتضى الامر ان يجر العربة آلاف المرات ، فعلى الاقل انهم آدميون هؤلاء الاطفال ، وعلى الاقل انهم يغنون ويصفقون وتؤنسه حركاتهم وضحكاتهم البريئة العذبة ، وقبل يوم كان يجر العربة وهي محملة بأكياس التمن وتنكات الدهن وعلب المساحيق الصابونية والاشياء الثقيلة الاخرى التي كانت تدك قوته المتهرئة اما اليوم فهو يحمل بعربته قلوباً لا تعرف الهم . . وتذكر طفله « شهوبي » الذي مات في عيد الفطر الماضي وترحم عليه.. ليته كبر قليلا وليته ذاق مباهج العيد وليمت بعد ذلك ، ولكنه لم ير شيئاً . ولله في موته حكمة . . لمح « مجيد رمانة » بين الاطفال المتكومين طفلاً ساكناً وادع الوجه ينظر في صمت وقور ولكنه متحفز ، ويدير عينيه بين رفاقه في هدوء طفولي ثم ينقلهما الى مناظر الشارع الصاخب ويتفرج لوحده في عالم من الناس

والسيارات . . « اهو وحده . ؟ » تساءل « مجيد رمانة » وظل يحدق فيه . رآه يرفع يده فجأة ويشير الى مكان ما من الشارع ويبتسم ابتسامة عريضة . . ارتفعت اليد مثل هبة ريح ناعمة وتحركت الاصابع الصغيرة وتخيل « مجيد رمانة » سرباً من الحمام يصفق بأجنحة بيضاء نقية . . أحبه وظل يحدق فيه وساءل نفسه مرة أخرى - « أهو وحده . . . » والفتاة الرفيعة الساقين تضرب على الدف وتغني ويردد معها الاطفال الا هو . . هذا الشيطان الصغير . . « كيف يمكن ان اعرف انه وحده . . ولكن لماذا اريد ان اعرف ذلك . . ربما لأنه صغير صغير جداً . . » وقدر عمره بين الثالثة او الرابعة . . « يعني يجوز تركته امه . . ويجوز ضايع . . » كان طفله « شهوبي » قد مات في عيد الفطر المنصرم ، اصيب بهزال شديد ولم يعد لبن امه يكفيه ولم تنفعه مستشفى حماية الاطفال وهكذا مات ببساطة ، وظل يذكره وفي قلبه نغزة . . ظلت الافكار تتأكل « مجيد رمانة » وتتلاعب به ، وقد انقضى نصف النهار وكان قد جرّ العربة مرات عديدة وحمل اطفالا كثيرين صعدوا الى العربة ونزلوا منها الا هو . . هذا الشيطان الصغير الساكن الحركات . . دفع له عشرة فلوس فقط ثم آثر ان يبقى طوال النهار وكان ما دفعه اجرة يوم كامل . « شسويلله . . انزله

بالقوة . . » وتذكر « شهوبي » وترحم عليه وتمنى لو انه كبر قليلاً حتى يرى بعض مواسم الاعياد وتمتلأ عيناه بفرحة واحدة لا غير .

وبدأ « مجيد رمانة » يفكر كالشيطان ، فقد راحت الهواجس الغائمة الغريبة تخيم على عقله ، ماذا لو اخذ الطفل معه وساقه بعربته وقدمه الى زوجته « فاطمة » . ان احداً من الناس سوف لا يحس به . وسوف يمضي به الى حجرته هناك ويقدم له طعاماً ويشتري له بعض الحلوى ويقنعه بالبقاء - « معناها صرت حرامي . . » وضحك « مجيد رمانة » على نفسه . . يا له من خاطر مخجل ذلك الذي سيطر على تفكيره ودغدغه . . وتمتم مع نفسه - « يمكن كل انسان يفكر بهذا اذا كان مثلي . . » كان وقت الظهيرة قد ولى ، واحس « مجيد رمانة » بشيء من التعب بعد ان قطع الطريق عشرات المرات .

- « اسمع . . تروح ويايه »

ورفع الطفل عينيه .

- « تروح ويايه . . »

- « لا . »

- « اخاف انته جوعان . . تروح ويايه »

- « لا . . »

وحار « مجيد رمانة » وقلب الامر على وجوهه وعاد يسأل

- « ابني . . عيني انته وين اهلك . . أخاف جوعان . . »

- « لا . . »

- « زين تروح ويايه »

- « لا . . »

- « وين اروح بيك لعد . . يمعود لا تبليني . . »

كان الاطفال قد ذهبوا ولم يبق إلا هو والطفل . . فكر بطرده من العربة ولكنه آثر ان يجره بمفرده .

- « زين تنزل هنا . ؟ »

وبكى الطفل لأول مرة وانكسر قلب « مجيد رمانة » مثل حبة فستق ، وشعر انه لا يحتمل كل هذا العذاب وسأله متضايقاً - « انته وين اهلك . ؟ »

- « ما ادري . . »

- « أويلي ربي أويلي »

وجر « مجيد رمانة » عربته باتجاه مركز الشرطة واجتاز زحمة الناس وسلمه هناك وعاد كئيباً . جر عربته الخالية الى مكان « مصطفى الچايچي » على الرصيف القريب من سينما بغداد ، ترك العربة عند منعطف الشارع الفرعي وطلب استكاناً من الشاي وجلس يرتشفه بتأن . . احس باجهاد ثقيل يسري

في ساقيه وطقطقت اصابعه عندما حركها وشعر براحة خفيفة وتأوه . . كان هناك رجل ضخم مقطب الجبين يجلس قريباً منه ويرتشف الشاي ويتحدث مع الآخرين . . سمعه يقول في النهاية - « ماكو غيرنا احنا . . علينا توكع بالاخير ومن يموت واحدنا محد يمشي ورا جنازته . . ايه . . » رشف « بجيد رمانة » بقية استكان الشاي وآثر ان ينصرف بتفكيره الى قدميه اللتين امتلأتا بالطين ، تناول حجارة قريبة ومسح بها قدميه ، و رمى الحجارة الى الطريق ، وتنهد .

أغنية زنجية فى ظهيرة قائظة

قطع جزء من شارع الرشيد قرب الحيدرخانة . طوى الجريدة وتأبطها ومشى بخطواته الوئيدة وتنفس لهاث الظهيرة . هبط عن الرصيف فجأة وعبر الشارع مسرعاً ولحق بباص المصلحة « ٢٣ » واستطاع ان يمسك بالعارضة البيضاء رافعاً جسده عن الارض بعناء ، اختار مقعداً الى جهة اليسار حيث يتكون الفيء والظل ، ومسح على وجهه وتنفس طويلاً ، ألقى بعينيه الى الشارع والرصيف عبر زجاج النافذة وراح يحدق شاعراً بهدوء نسبي يسري رويداً في اعضائه . . بصورة تلقائية أرخى جسده على المقعد ولم يعد يفكر ، بينما كانت عيناه تنغلقان شيئاً فشيئاً كأنها الاغفاءة . . عندما اهتزت السيارة بقوة صحا كما لو انه ينهض من نومة ثقيلة ، ورأى بوضوح وجهها الليلي . . كانت جالسة امامه ، ولم يكن يبين منها سوى جانب من الوجه

الاسود ، غير انـه عرفها كما يعرف نفسه . . كان الجو الـذي يحيط بـه داخل السيارة وفي الظهيرة القائظة مغلفاً بلهاث دبق ثقيل ، إلا « هي » ـ هذه المرأة الوديعة الوجه التي يعرفها كما يعرف نفسه . . نظيفـــة لامعة ملساء مثلما كانت في السنوات المنصرمة . . ابتسم في سره بامتنـان وشعر لاول مرة في هـذا الوقت القائظ باستيقاظ عجيب في مفاصله وذهنه المخدر ، وراح يحدق في جانب الوجه الزنجي دون ملل واحس انه يعود خفيفاً مثل نسمة صغيرة . . لم تشعر به المرأة الزنجية البدينة . ظل يتملى في جانب وجهها الفاحم ويسترخي على مقعده لصق نافذة السيارة . . ابتسم مع نفسه مرة اخرى . .

ـ « اهو انت . . ايها الوجه الليلي النظيف ؟ »

ـ « نعم يا سيدي . . وانت ، اتكون انت سيدي القديم ؟ »

هز رأسه واغمض عينيه كما لو انـه يقدم امتنانه في فيض من الرضى والسعادة وانساب في غمرة افكاره . .

ـ « هو انا . . اترينني تغيرت . ؟»

ـ « لشدما تغيرت . »

ـ « اجل . . نفايات رجل برجوازي . . أترين . »

ـ « آه يا سيدي . . لشدما تغيرت . »

ـ « هو الزمن يا فاطم . . هل تذكرين عندما كنا نسميك

« فطم » وندللك .. كنا نحبك »

- « اجل .. اجل . كنت احبكم جميعاً ، واحب الطفل الذي مات »

- « هل تـذكرينه حقاً . . لقد مضت على موتـه سنوات طويلة .. كان طفلا رائعاً . . »

- « كان رائعاً . »

- « وكنت تغنين له بصوتك العريض المليء برائحة الصيف تنويمتك . . لقد نسيتها ونسيت كلماتها . . دللول . . دللول . . . »

- « آه يا سيدي . . الطفل الذي مات . . دللول يمه دللول . . عدوك عليل وساكن الچول . . »

وابتسم الرجل وحده صاعداً فى هالات من السعادة تتدافع مع افكاره الخفية . . توقع ان يتحرك الوجه الليلي ويلتفت اليه غير انه ظل وحده يردد في تهويمة خفية عذبة . . « دللول .. دللول . . »

- « كان صوتك الزنجي مليئاً مثل زهرة متخمة باللون . »

- « كانت تلك اغنيتي الاثيرة التي اردددهـا للطفل الـذي مات . »

- « انت الآن اغنية نظيفة مثل وجهك الاسود النظيف . »

- « لقد تزوجت يا سيدي . . هل تعلم ، وانجبت ستة

أطفال . »

- « تبارك الله . . انا اعيش وحدي . . اعلمي انني اعيش وحدي »

- « وسيدتي . ؟ »

- « تلك المرأة . ؟ تركتني بسهولة . »

- « ذلك امر محزن يا سيدي . »

- « إنها أمرأة قذرة . . بعد موت الطفل الذي كنت تحبينه . . تركتني بسهولة وذهبت . »

- « انه امر محزن يا سيدي . »

- « ولكنك انت بالذات سعيدة غاية السعادة يا فطم . . أليس كذلك . . دعيني احدثك عن حياتي اليوم . . حياتي التافهة الباقية لي . . انها تافهة وتافهة جداً ، ويفرحني لو تعلمين ان ينصت إلي مخلوق نظيف طيب مثلك . . هل تعلمين انك الآن محض اغنية تهبط عليّ فجأة في هذا الوقت وتملؤني عذوبة . . دعيني استعرض لك شريط حياتي اليومية ، وهي مليئة بالتقزز . وفي الوقت الذي يصطبغ فيه اهابي باللون الابيض اشعر بالقار يملؤ جلدي كله . . اما انت يا فطم فما انظفك وأشد نصاعتك . انك الاغنية التي ترددت في زمن الرضى والسعادة وما تزال ترن صافية مثل بلور أبيض ناصع . . استمعي اليّ كيف هي حياتي اليومية

السقيمة ، وكيف تتطافح بالوحل الذي يسمونه الضجر والموت ..
ووو . . وو . . لقد تركتني تلك . . اسمعي . . ووو . . وو . . »

تحرك جسد المرأة السوداء البدينة وعاد الحيز الذي احتله جانب الوجه الزنجي اللامع فارغاً . . وقبل ان تهبط في موقف المصلحة ترددت هفة هواء لافح قرب الرجل القابع لصق نافذة السيارة . .

استدار الرجل من مقعده . امتد بصره خائباً بينما اختفت المرأة في موقف الباص . .

تخيل الرجل وحده تلك السواحل الليلية الغارقة في الظلمة الشفيفة . تخيل طيراً متفرداً يهوي متقصف الجناح مذعوراً على الساحل ، وراح يمضغ وحده بقايا رنين عميق بعيد « دللول يمه دللول . . عدوك عليل وساكن الچول . . . »

القصص

١ - ألق ما في يدك
٢ - حكايتان عن المدينة «ن»
٣ - صهيل على السلّم
٤ - الادانة
٥ - الرماد في اللون الازرق
٦ - ممر الى رمال البلور
٧ - القرد والببغاء
٨ - رحلة عبر عذاب الحلم
٩ - الفارس والبرج
١٠ - العربة والاطفال ومجيد رمانة
١١ - أغنية زنجية في ظهيرة قائظة

١٤ / ٧ / ١٩٧٠

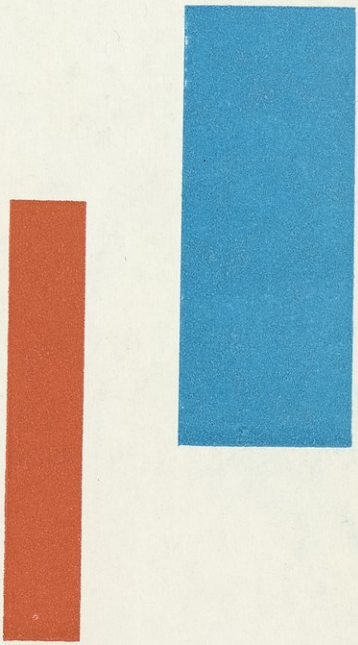

الخطوط للشاعر صادق الصائغ
ساعدت نقابة المعلمين العراقية على نشره

طبع الغلاف بمطبعة البيان

ثمن النسخة ١٥٠ فلساً

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074072461
(NEC)
PJ7842
.H52
A8
1970